



عبدالله بن محمد بن عبد الله



المسردان: الصيغة بقد الصديق.

المؤلف: عباس محمد العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إمام .

تاريخ النشر: أكتوبر 2004م .

رقم الإيداع: 2000/ 17574

الترقيم الدولي: ISBN 977-4-1451-8

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عزاي - الهلشنج - البصرة
ت: 346664 (02) - 3472864 (02) فاكس: 346576 (02) هـ: 21 إسك
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Public@nahdetunir.com

المطبع: 90 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة فاس - فاس مكناس
ت: 8130287 (02) - 8301889 (02) - فاكس: 8130096 (02)
البريد الإلكتروني للمطبع: Press@nahdetunir.com

مركز التوزيع الرئيسي: 31 ش كاد محسن - الزاوية - 21
القاهرة - هـ: 56 القضاة - القاهرة -
ت: 590022 (02) - 5948805 (02) - فاكس: 5900255 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002220212
البريد الإلكتروني لخدمة البيع: Sales@nahdetunir.com

مركز التوزيع بالعمادة: طريق النوبة (رقم 5)
ت: 5230669 (011)
مركز التوزيع بالعمادة: شارع عبد السلام - سايف
ت: 2256675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetunir.com

موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

زيتج بأقل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

حقوق النشر محفوظة © لشركة نهضة مصر للنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بغير وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر.

المرأة العربية

كانت نظرة العرب إلى المرأة نظرة طبيعية مرتجلة .

ونعني بالنظرة الطبيعية المرتجلة أنها النظرة التي لا يشوبها إحساس دخیل من وقم العقائد أو حكم التشريع ، ولكنها تنضى على الفطرة التي توحىها ضرورة الساعة أو ضرورة البيت ، وتختلف على حسب اختلاف هذه الضرورات .

فالعرب هم يضربوا اللعنة قط على المرأة في جاهليتهم الأولى ، لأن اللعنة التي ضربت على المرأة في القرون الأولى ، امتدت إلى القرون الوسطى ، إنما جاءت من الإيمان بالخطيئة التي أحدثت آدم وحواء من نعيم الفردوس ، وأصبحت المرأة ملعونة موصومة بالنجاسة والشراً عند بعض الناس ، لأنهم ألقوا عليها تبعة الشهوات التي تشربها فيهم وجعلوها حيلة للشيطان ، مذ كانوا يحسبون بغوايته الخفية كلما أحسوا بغواية الشهوة الحيوانية ، ومناطها المرأة قبل غيرها من هذه الأحياء .

فالعرب لم ينظروا قط إلى المرأة هذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة في الشر والخبائث ، لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى في عهد الجاهلية .

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذي يحكم عليها بالاستبعاد والخطئة المتفق عليها في المنزلة الاجتماعية ، وإنما عرف هذا

وأشبهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة وقيل الإيمان بالدين ،
لأنهم كانوا أصحاب ملك عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب
الحقوق والمعاملات بين أبناء المجتمع وبناته كافة ، فلما رتبوا
هذه الحقوق نظروا إلى المرأة في زمانهم نظرتهم إلى كل ضعيف
تابع لغيره ، ولم يلاحظوا في ذلك حثاً خاصاً بها ولا ضعيفة
«حسنة» موجهة إليها دون غيرها ، لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها
إلى أبنائهم الصغار وإلى الفاسدين منهم على الإجمال فعاملوهم
معاملة الضعفاء ، وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم
مع ذلك في عزة الألقاب والأبناء .

هذه النظرة أيضاً لم يعرفها العرب في جاهليتهم الأولى ، لأنهم لم
يضطروا إلى وضع تشريع كامل للدولة كاملة . ولكنهم تركوا أنفسهم
على سجيته كما تختلف به عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة
ارتجالاً كما تدعوهم إلى ذلك ضرورة البيئته أو ضرورة المصلحة العاصرة .
فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف في بعض الأحيان ، وربما
نسبوا إليها الأبناء دون الآباء من الرجال في أحيان أخرى .

والمرجع في كل أولئك إلى أحوال المعيشة العامة في الجزيرة العربية .
وخلصتها السريعة أنها أحوال نزاع شديد على المرعى وموارد
الماء ، لقلة المرعى والماء وكثرة طلاب هذا وذلك .

وهذا النزاع الشديد يجعل القلعة على «حماية النعارة» مقدمة
على كل فورة ولأنها مسألة تتعلق بها الحياة والبقاء .

وهو كذلك خليف أن يجعل المرأة في بعض الأحوال كلاً ثقيلاً
على عوائق ذريتها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك في حمايته
والنور عنه .

وهذا الذي يفسر لنا كثيراً من النقاظ العجيبة في الآداب
العربية ، لأنها - عند الرجوع بها إلى أسبابها - لا تحسب من
النقاظ ولا تزال متشابهة متقاربة في الأصول .

فمن ذلك مثلاً أن الحروب نشبت بين بني بكر وبني تغلب
أربعين سنة ، لأن اليسوس ابنه منقلد أضافت رجلاً ، فضرب
كليب ناقة ذلك الرجل ، وهو في ضيافة اليسوس ، فأقسم ابن
أختها جساس لها «ليقتلن هذا جمل هو أعظم عقرنا من ناقة
جارك» ، ونزل كليباً سيد بني تغلب في ثار تلك الناقة ، أو من
أجل كرامة امرأة في ناقة جارها .

وإلى جانب ذلك يعلم القارئ أن قبائل من العرب كانت تدفن
بناتها في طفولتها فراقاً من عارها أو إشفافاً من نفقتها .
ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أنهما غير نقيضين ، وأن البيئتين التي تدعو إلى إحدى
التصليتين حقيقة أن تدعو إلى الأخرى .

فإن آداب الحماية تجعل المرأة أحسن شيء بأن يحمى وأن يغار
عليه الحماة ، لأنها أفس بالرجل من أرض المرعى ومن ماء البئر
ومن الجمل والناقة ، فمن فوط فيها فما هو بقادر على حماية
شيء من هذه الأشياء .

ومن هنا فوط النيرة على العرض وإيثار الموت للبنت على العار .
وإذا رجعنا إلى الأصل في «آداب الحماية» وهو النزاع الشديد
الذي أوجبه شح الأرض بالرى والطعام ، فالحاجة إلى القوت
خليقة أن تغري بالقسوة المهينة ، وأن تؤنس للمعوزين في

مستويات الضيق بالتخلص ممن يستند القوت ولا يعين على تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعني بهن البنات الزائدات على حاجة القبيلة في تلك السنوات .

وربما ظن بعضهم أن أواد كنه من مخافة العار ، كما قال البحرى وهو يعزى بنى حديد تلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :
أَبْكِي مَنْ لَا يُنَازِلُ بِالسَّيْفِ مَشِيحًا وَلَا يَهْرُ الدَّوَاءُ
ويختتم عزاءه بقوله :

وَلَعَنِي مَا الْعَجَزُ حِنْدِي إِلَّا أَنْ تَبْتَ الرَّجَالَ تَبْكِي النِّسَاءَ
فقد قال فى تلك القصيدة :

لَمْ يَنْدُ كَثْرُهُنْ تَمِيمٌ عَيْلَةً بَلْ حَمِيَّةٌ وَآيَةٌ
يشير إلى قيس بن عاصم سيد بنى تميم الذى أقسم ليشدن كل بنت ولدت له لأن ابنته اختارت صاحبها الذى سبها على العمرة إلى أهلها . فكلام البحرى إن صدق فإنما يصدق على قيس وأمثاله . ولكنه لا ينفي أن العرب وجد فيهم من يند البنات عيلة - أى إشفافاً من النفقة - كما وجد فيهم من يند البنات أنفة من العار . وآية ذلك أن صمصة بن ناجية كان يشترى البنات من آبائهن ليصحيهن ، فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ، حتى قيل إنه افتدى ثمانين ومائتى وليلة بالشراء . ولو كان أبائهن يندونهن خشية العار وحده لما أغنى عنهم إقصاؤهن وهن فى قيد الحياة ، ولحق بهم فى بيعهن عار لا يقبله من يأنف من العار .

والقرآن الكريم يقول : ﴿ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾

ونخرج من هذا جميعه أن هذه النقائص الظاهرة مصدرها واحد ، وهو النزاع على الرزق ، وما أرجيه من تقليد فضائل الحماية

والدفاع عن الحرمات ، فهذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الإملاق ، كما يفسر لنا وأدن خشية لعار وفسر لنا احتقار البكاء على المرأة ، كما يفسر لنا إعزاز جوارها حتى لتتشب الحرب أربعين سنة غضباً من إصابة ناقة فى جوار خاله رئيس ، ويوجع كله إلى نظرة طبيعية تجرى مع الحوادث فى مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة دينية ، ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع .

ومن لوازم هذا النزاع الشديد فى مطهر آخر من مظاهر لبادية العربية أنه جعل المرأة عاملة نافعة فى حياة الأسرة وحياة القبيلة ، لأن المعيشة الضنك التى كان يعيشها البدوى فى صحرائه المجدبة تلبى عليه الترف والبلخ ، ولا تتسع لإسراف اللذنى الذى يتفق ما ينقض على المرأة ، ولا أرب له عندها غير لمتعة والمسة ، ولا عمل له عنده غير الراحة والزينة ، فكانت المرأة لعربية - فى لبادية خاصة - تعمل كل ما تستطيع أن تعمل لخدمة أسرته وقبيلتها ، تعمل كل ما تستطيع أن تعمل لإتقان عملها وتجميل خدمتها ، فكانت ترمى الإبل والشاء ، وتخص اللبن ، وتغزل الصوف ، وتصنع الخيام ، وتضمد الجراح ، وتطب لنفسها فى شئون الحمل والولادة ، وتحقق من هذه الشئون ما يسهل المرأة الحضرية فى كثير من أم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها إلى تطيب نفسها وقيامها على رعى الأحياء التى تلازمها فى غنوها ورواحها وفى حصتها ومرضها وفى حملها وولادتها وفى اختيار الأصلاح والأجدى لنسلها ونجاحها .

وقد رويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه الصفة فى جملة معناها ، وهى صفات لا يشترط أن

مدرة أرومته وعزّ عشيرته ، شديد الغيرة لا يتم على ضعة ، ولا يرفع عصاه عن أهله .

فقلت : يا أبت الأول سيد مضياح للجرة ، فما عست أن ظن بعد إباتها ، ونضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلمها فأشرفت وخافها أظنها فأممت ؟ ساء عندك حالها وقبح عن ذلك دلالها . فإن جاءني بولد أحجقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت . فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه عليّ بدي ! ولما الآخر فيثقل الفتاة الحريفة الحرة العقيلة . واني لأعلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه .

ويلوح من تكرار هذه الآية أن استشارة البنات في أمر زواجهن كان سنة من السنن المروية بين سادات العرب لا يشد عنها إلا القليل .

ومن البداية أن هذه العادات والآداب التي تنشأ من بيئة الوطن وتاخذه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها تفاوت إلا ما لا بد منه بين فرد وفرد ، أو بين طبقة وطبقة ، على المثال الذي قدمناه .

بيد أنك قد ترى في الأمة طائفة من عليتها أو بيتا من بيوتها يخيل إليك أنهم خصوا من دونها صفوة هذه الآداب ونقاوة هذه العادات .

أو يخيل إليك أن آداب الأمة كلها إنما كانت تحضيراً مقصوداً لهذه الطائفة أو لهذا البيت ، يأخذون منه بلخلاصة المصفاة والباب المختار .

فيذا صبح هذا الوصف في قبيلة من قبائل العرب فهو اصح ما يكون في قبيلة بني تميم ، ثم في بيت أبي بكر الصديق الذي كان من موضوع الذخابة من هذه القبيلة .

فقد اجتمعت لبني تميم خلاصة الآداب التي انجست من فرائض الحماية والامانة عن الغمار ، ثم تناولتها بالفضل والتعذيب بيعة السيادة وبيعة الحضارة .

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلًا في هذه الآداب جميعها يحتدى به بين الحواضر العربية ، لأن سيادة هذا البيت لم تكن سيادا طغيان وقتال ، ولكنها كانت سيادة شرف وامانة ، وكانت حصته في الجاهلية من مقاوم الشرف حصه الوفاء بالمغارم وضمنان الديون ، وعلمه الأكبر في الجاهلية يدور على التجارة ومعاملة الناس ، ولا يدور على البأس والإكراه .

فنشأ البيت كله على الرفق والدمامة ورقة الحاشية ، واستهزأ بتدليل نساءه وبناته حتى قيل - كما جاء في الأغاني - إنهم كن أخطى خلق الله عند أزواجهن . وكانت عند الحسين بن علي رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت طلحة ، فكان يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهي مصارمة لي لا تكلمني » .

وندر من أبناء الصديق عفيف من لم يكن مع امرأته شأن يذكر في باب المحبة بين الأزواج :

فعبد الله أكبر أولاده بتي بعاتكة بنت زيد العدوية ، فهم بها ، وشغل عن خاصة أمره وحاشته ، حتى نصح له أبوه بطلاقها ، فطلقها وهو تارده ، ثم أدركه الندم فتظم فيها القصائد ومنها :

أغارتك لا أنساك صاذر شارق وما لاح نجم في السماء محلوق
أعانتك قلبي كل يوم وليلة نديك بما تخفي النفوس معلق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلي في غير شيء تطلق

وأخوه عبد الرحمن نقله عمر بن الخطاب ليلى ابنة الجودي من
حسان غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها
فترة إلا نظم الشعر في الحنين إليها ، ومن قوله فيها :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالسَّمَاءَ بَيْنَنَا قَمَا لَابَنَةِ الْجُودَى لَيْلَى وَمَا لَنَا
وَأَنْتَى ثَلَاثِيهَا بَلَى وَلَمَلْهَا إِذَا النَّاسُ حَبَبُوا قَابِلًا أَنْ تُوَانِيَا
وأفرط في التعلق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضي
الله عنها ، وما زالت به حتى جفاها ، فعادت تلومه في جفائها
وتقول له : « أفرطت في الأمرين . فإما أن تنصفها ، وإما أن
تجهزها إلى أهلها » . فجهزها إلى أهلها .

ومن ذرية الصديق « ابن أبي عتيق » صاحب عمر بن أبي ربيعة
شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالجناء بينه وبين الشرب ،
فيرك من مسبة إلى مدينة ليصلح بينهما ، ولا يترجل عن
مضيقه حتى يتم الصلح على ما يورمه .

وهو مع هذا كان يتخرج من نزوات عمر ويسأله : ألم تحببني
أنك ما أتيت حراماً قط ؟ فيقول : بلى أفيستحبره عن قوله :
وما نلت منها مخزماً غير أننا كـلانا من الشوب المور

ثم لا يتركه حتى يجيب بما يدفع شكه ويرده إلى حسن ظنه .
فأدب الرجال والنساء في بني تميم كانت مثالا للرعاية التي
تظفر بها المرأة العربية في بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

ولكنها لم تزل عربية في قوارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التي جعلت
عرضها أحق شيء بالحماية ، وأقمن حصن أن تسلم وتغار عليه .

فكان أبو بكر نفسه مثالا من أمثله الغيرة بين أهله وقومه ، وقد
قال ابن سيرين : كان أشهر هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . وروى
عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن نقرا من بني هاشم دخلوا
على زوجت أسماء بنت عميس ، فكروا دخولهم عليها ، وشكاهم
إلى النبي عليه السلام ، فقام على المنبر فقال : لا يدخلن رجل
بعد يومى لنا على عتيبة إلا أن يكون معه رجل أو اثنان .

ولما شب عمر بن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمع فتيان
ميم فأنذروها لن تعرض لها بعد ذلك ليقتلته شر قتلة فأقسم لا عاد .

وعائشة هي التي كانت تعاتب في كشف وجهها فتقول : « إن الله
وسمى بميم جد أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ،
فما كنت أستره » . ولله ما في وصفتها بقدر أن يذكرني بها أحد .

فهو دلال لا يستر الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وآداب
سيادة وحفارة لا تنسى الأصول المعروفة في آداب البداوة .

وفي هذه البيئة التي تحوطها الحمية والرعاية نشأت ربة هذه الدراسة
وموضوعها الكتاب : عائشة بنت الصديق رضي الله عنها .

ولكنها لم تدر بعناية لم تشركها فيها ولا تد هذه البيئة . فقد
تربّت على النعمة والخير ، وتربّت على العزة والكرامة ،
وتعلمت اقراءة التي لم يكن يتعلمها من نجياء الأبناء في بيوت
السادة إلا القلة المعبودة .

فصعّح أن يقال : إن الرعاية التي ظفرت بها ربة هذه الدراسة
كانت هي خلاصة الكرامة التي هيأتها لبناتها حمية البداوة ،
وصفقتها مع الزمن شمائل الحضر ومآثر الشرف والسيادة .

المسألة المسلمة

جاء الإسلام فبدأ من نهضة التي انتهت إليها ألب الحضارة
والسيادة ، وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضرة
في معاملة المرأة العربية .

إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على نقاتل البيوتات ، كما كان متصوراً عليهن في آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ، يتبعه من برعياء ويهمله بن ياباه .

ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرهاية لم تصل إليها أرفع النساء في أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه جعلها مناط التكليف ، ووجه إليها الخطاب في كل شيء ، كما وجهه إلى الرجال ، إلا ما هو من خصائص عمل الرجل في العرف المنقسم .

فالمرأة في شريعة الإسلام إنسان مرمي الحقوق ولواحيات
 (ولهذه مثل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة) .

وكل امرأة أو فتاة - من العلية أو السوقة - لا يصح زواجها حتى يرجع إليها ، فيه « فلا تنكح لأبم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » ، وعلامة إذنها السكوت كما جاء في بعض الأحاديث .

44

ولها أن تملك ما تشاء ، وأن تبيع وتشتري ما تشاء ، وأن
تشارك في الإرث ، وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الفروع ولا
تضرب بالسيف ، بل كان من حق الرجل أن يشنها هي ميراثاً
ينتقل إليه كرها ، كما يرث الخيل والإبل والحطام . فأبطل
الإسلام ذلك حيث جاء في القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْمِلُوا كُفْرَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَكُمْ دُيُوتُنَا لِكُلِّ فِتْنَةٍ لِكُلِّ قَوْمٍ ﴾

وقضى بأن تباع النساء كما يبيع الرجال ، فلا تغنى عن مبايعتهن مبيعة أبائهن وأزواجهن وأوليائهن . ونص القرآن الكريم على ذلك حيث جاء في سورة الممتحنة :

[illegible]

رأى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد .

وَأَذِشْرَاحُهُمُ الْإِنِّى خَلَقْتُ مِثْلَهُ مُسَوِّيًا وَمَوْكِبُهُ ۝ يَوْمَ تَخْرُجُ السَّيَّارُ مِنَ السَّمَاءِ
مُتَبَعِينَ بِرَأْيِكَ عَلَى عِوَجٍ أَمْ يَكُونُ فِي الْأَنْبَاءِ نَاقِلُونَ ۝

ومن الآداب القرآنية أن يخالف الرجل كرامتها إذا تغير قلبه عليه من
سجوها ، عسى أن ينوب إلى حبها أو يكون في احتمالها خير له ولها :

﴿ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الْعَرَبِ إِذَا ذُكِّرُوا بِهِم مَّا كَرِهُوا شَيْئًا

وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَبْرًا كَثِيرًا ۖ

وكانت وصايا النبي ﷺ على منهاج أوامر القرآن في إنصاف
المرأة ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول :

« خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِلنِّسَاءِ »

و « مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ وَلَا أَعَانَهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ » .

وأشد توصية بها في بعض الأحاديث إلى وحى جبريل حيث قال :

« مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالنِّسَاءِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ يُحَرِّمُ طَلَاقَهُنَّ » .

والتعميم الذي كان في بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها من
الرجال فضلا عن النساء ، جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة
على كل مسلم ومسلمة » ، واستنحبه عليه السلام حتى للإماء
حيث قال : « يَا رَجُلُ كَلِمَتٌ عِنْدَ وَلِيدَةٍ فَعَلِمَهَا فَاحْسِنْ تَعْلِيمَهَا ،
وَأَدَّبَهَا فَاحْسِنْ تَأْدِيبَهَا ، ثُمَّ اغْتَنَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ » .

هذه هي المنة التي نواتها المرأة في الشريعة الإسلامية .

وهذه هي المعاملة التي أوجبتها آداب الإسلام على المسلمين
كافة ، وهي أرفع من كل أدب نزلت إليه الجاهلية في الجوانب
التي تهذب فيها معاملة المرأة بين ذوى السيادة والحضارة من
أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام جوانب شتى لم يكن
للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إنصاف .

ومهما يكن من الرأي في موقف العصور الحديثة من المرأة - وهو
ما نعرض له في حتام هذا الكتاب - فالذي لا ريب فيه أن الإسلام
قد رفعها درجات فوق أرفع منزلة بين العرب أو بين الأمم الأخرى ،
وأن المسلم الذي يعمل بدينه يوليها من البرقوق ما طيبته لنفسها ،
لو أنها كانت في زمان يطلب فيه النساء لأنفسهن حقاً من الحقوق .

ولم تكن تلك غاية المرتقى .

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطاع ، وهي على هذه موكلة بالتعميم
الذي يشترى فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإنما طاعة
التكليف فضيلة تعلوها فضائل الاختيار والرغبة والاستياف إلى
الإيجار ، كأن الإتيان هو المثوبة التي تغني عن المثوبة الموعودة . وها
هنا تتفاوت المراتب وترقى الفضائل من التعميم الشائع إلى الامتياز
والرححان ، وتستبقى النفوس حتى يكون لعمل المفروض أمنية
محبوبة يؤلم النفس أن يعاقب دونها ولا تبلغ الغاية منها .
وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهي المنة التي سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما تهيأ
له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك النظرة النبوية .

فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة
محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السبائية على من يطيعها ولا
مسرة له في طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل مخلوق
حتى ولا سيما الضعفاء ، وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين
أخلاق الرجال وعنوان المنافسة في طلب الخير والكمال ، فقال
خير مرة : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِلنِّسَاءِ » .

ولكننا إذا فهمنا النبي إنساناً لقد فهمناه كله ، وفهمناه على حقيقته التي تعطينا وتعتد له أواخر القرابة فيما بيننا ، لأننا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذي شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال : هذا هو الإنسان ! فإذا هم الأقربون الذين ترعينا عظمتهم ، لأنهم منا ونحن منهم . ولأنهم خالدون مخلود الإنسان من وراء الأرقام والأزمان .

والسيدة عائشة رضي الله عنها مثل من أمثلة الأنوة الخالدة في جميع أرقامها وجميع عصرها .

فصلها في الكتابة عنها أنها كتابة عن بيت الأئمة التي تلمحها حوله وتلمحها من قبلها في كل أثر .

وأما تريث النبي في بيته ، فثريث الرجل الذي ارتفع بالنسبة إلى غلب مراتب الإنسانية ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته ، كما يكون الرجل بين النساء على سنة الفطر المحمودة من آدم وحواء .

وفصلها على الجملة أنك تقر من أخبارها ما تقر ، فلا تزال تقرب بعد كل خير قرويه أو يرويه غيره . أجل هذه هي الأنثى الخلة في كل سمة من سماتها .

هذه هي الأنثى الخالدة في غيرها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في ملالها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التذليل والتصغير وحب التطلّع وحب المكايدة والمناوشة ، ومكائمة الشعور والتعريض بالقول وهي قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التي تتراءى في طبيعة المرأة فهو باد في خبر من أخبار السيدة عائشة ، كأوضح ما يبدو وأصدق ما يكون في طبائع النساء . والغيرة في طبائع النساء ألوان .

تغار المرأة على قلب الرجل الذي تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله المودة لحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهي تسمى على كل ما يقوتها شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن نمة منفة محدورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من شريكها في رجلها كائنًا ما كان حظها من الجمال ؛ وتغار من كل مزينة غير الجمال ما كان فيها سبيل إلى الخطوة في القلب الذي تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه .

والأشرف الغيرة في جميع هذه الألوان من الغيرة التناسلية ماثلة هناك في سيرة عائشة كما روتها هي وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذي ينبغي لها والحق لنبي الذي هي جامدة جهدها أن توفقه وترعاه .

كانت السيدة خديجة مترفاة منذ سنوات يوم أتى النبي بالسيدة عائشة .

ولكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها للوافي بعش معهما ، لأنها شغلت قلب النبي بعد وفاتها فلم يش يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها .

وكان علي السلام يبر بعض المجائز ، فسأله السيدة عائشة في ذلك ، فقال : إن خديجة أرصنتني بها . فقالت صفية : خديجة . خديجة . لكانما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة .

وعلى حلم رسول الله ربما غصب أحياناً من ثورتها على ذكرى حديجة . فعصب في هذه المرة وتركها فتره ثم عاد وأنها - أم رومان - عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ! مالك ولعائشة ؟ إنها حديثه السس ، وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ يشغلها معانها وهو يقين لها : أأنت القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسأله مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد يذكرك الله خيرٌ منها ؟ فأسكتها قائلاً : « والله ما أذكرك الله خيراً منها » . أتت بي حين كذبني الناس ، وواستبني بماله حين حرمني ناس ، وورقت منها الولد وحرقته من غيرها .

أما ريكائيا المراتي كن يمشيها في بيت سي لهما بيت بدر من إحداهن يخدم يستغسه السي عنده فصلا على ليد من حبال أو السلاحة

تعود عليه السلام أن يستعيب العمل الذي تهين له زينب بنت جحش من أجس أمهات المؤمنين وأحظها عنده . فأحسنت رايها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن سقعه في حبيب ، وقالت فيما روه عن نفسها : . . فتواضأت أنا وحفصة أيما دخل عليها فلتعل له : أأكنت معافير ؟ وهي طعام من صنع حلو ، ولكنه كربة الرائحة ، ولم يكن أنفص إلى النبي عليه السلام من ثمة كربة . فمد دخل عنده رسول الله قال : إني حد من ربح معافير قال لا ! ولكن كس أشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، فلن أجود إليه !

وفد عرفت زميلها السيلة صفية بحدودة الطهي ، وهي في لأهل إسرائيل من أهل غدير . فتفقت عليها السيلة عائشة هذه

الإحادة ولم تكتف منها بل هي التي روتها ، ومن حديثها عنها عرفناها قالت : ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو في سبي فأعدني أكل - أي قشيرية - فأرسلت من شاة لفيرة . فمكسوت الإماء ثم فتمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قل : إئاء مثل إئاء وطعام مثل طعام .

وهذه عيناها من زميلات لم يجهروا بالمتانة والمعاينة وهي باليداهة دن غرتها من الرسلات الدواني كن سافسها حبرة ويكاشف لسي عيه السلام بالسكوى من نصيبها عيه من المودة والحظوة ، وعلى رأسهم أم سمة التي شهدت على نفسها والنبي يحطبها أنها غيور لا تصيب لمساومة ، فكس عليه السلام يعاملها ليهب عيرتها ؛ وتعصب عائشة من هذه المجاملة على عمنها بمكانتها عنده ، قالت

دخل علي يوماً رسول الله ﷺ فقلت :

أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا عميرة ، كنت عند أم سلمة

قلت : ما تشع من أم سلمة ؟

فتسم ثم قالت : يا رسول الله ألا تعبرني عنك لو أنك نزلت

بعذوتين إحداهما له نوع والأخرى قد رحبت أيهما كنت نوعي ؟

فأه : التي ترج !

قلت : فأنا ليس كأحد من نساك . كل امرأة من نساك قد

كانت عند رجل ، غيري . .

فتبسم عليه السلام .

وإذا كانت أكلة أو شرية حصل تستطاب عند إحدى الزميلات ،
أو مجاملة لإحداهن جيباً لخطاط ومدارة لحيرة - تثير هذه
المفاسدة وتقرى بهله أنمؤمة فييس من المصير أن نفهم كيف
يكون الغيرة التي شيرها الدرة المحبة المرحوبة حين يرفعها
البي من إحدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن صوات ، وهو
شديد الكلف بها ولتطع إليها .

تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المعاملات

ومد ثارت فأنرب يوم ولده عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية
تقطيع ، وكانت على هذه الحرية التي اشرب بها جميلة يصب ،
تفاد منها الرميلة لجمالها رحيماحبها فوق غيرتها منها لهذه
الأمومة التي تعرث بها بين تبع بطيران

قلت كتب السير : وغارت روجاب التي ولا كعائشة

لأن عائشة رضي الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى التي
ترسمت إليها « مديرة » بأمرتها ، فهي أحق بالغيرة على تلك
المكانة من سواها .

ولا ويب في حب عائشة لغيري ، ولا في سرورها ورضاها بما سره
ويرضيه . ولكنما تعاللب الطبيعة الإنسانية - والطبيعة التنسوية - بد
يرفها إذا نحن ترفا منها أن تسر بما يثير عبرتها ، وإن نجب الرحن
بم سر بما عسى أنه يهرف حبها عنه ، أو يقصص سهمها فيه .

فمن الطبيعي أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه .

ومن الطبيعي كذلك أن تبار من السرور الذي يحسه إلى غيرها ،
لأنها تحبه

وقد يفترق القلبان في لحظة من اللحظات ، لأهيم مقتربان
أشد اقتراب .

وهذا الذي حدث عند موبد إبراهيم من مارية القسطنية ، وهي
فتية جميلة رضية ، يذقيها من قلب النبي شتى العزائم ، وأولها
هذه المزة التي قرى على كل مرة

فلما رأب عائشة فرح النبي بالوبيد المرموق ، وحست شعاع
النبي به جددت نفسها أن تعاللب غيرها فلم تنوع على هذه
المغالبة . وقال لها يوماً : انظري إلى شبيهه أ هل تمثت لسانها أن
تقول : ما أرى شيئاً . وربما أعجبه لمؤ الولد ، ولقنتها إلى
يأسه ولحمه وتزعج جسمه ، فيعز عليها أن تعجب مثل عجيبة
لأنه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يظرب إبراهيم

وكان غضب النبي من غيرتها تأديب وتهذيب ، لا عصب
سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسسه ، ولا يعذرها فيما
يبغى له أن تتوحاه أو تتجرأ ، أو فيما يحسن بالمرأة التي أحبها
هذا الحب أن تفلح عنه وتعرف موضع الملامة فيه .

فلما لامها في شيء بعته من غيرتها .

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فتت هذه الغيرة
التي تمس أناساً آخرين . فيؤاخذ مؤاخذة المؤعب الرفوق ،
ولا يدع لها أن تعيد ما أحدها عليه .

ما بعد ماسه روجنه السيلة صعية ، فذكوت من عيوبها أنها
قصيرة فكره أن تمض في حديثها وقال : « يا عائشة ! لقد قلبت
كلمة بوزخت بدم البحر لمزجته »

وقد تكون وحدها في بيوتها فمعيها ثيابها وتحب أن تنظر إليها
 قالت : « ولست ثيابي فقطعت أنظر إلى ذيلي وأنا أمشي في
 لست وألقت إلى ثيابي ويلي قد دخل على أبو بكر ففقد
 عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلب . وم . - .
 قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب سرته ليد مع ربه
 عز وجل حتى يفارق تلك الرتبة ؟ فنزعت مصدق به . قال
 أبو بكر : حس ذلك أن يكفرك ؟ » .

وهي عائشة كاملة في هذه القصة الصغيرة . هي حواء التي
 تحب أن تنظر إلى ربتها . وهي أم المؤمنين التي تحب أن ينظر
 الله إليها . وهي هنا أيضاً حواء تطمح إلى رتبة أعلى وعلى

ولي نعوذنا أسباب الهمم بحياة كهذه الحياة لأهل المرأة
 العربية ، والمرأة المسلمة ، والمرأة الحاضرة في كل زمان

عائشة

ولدت عائش لأبي بكر الصديق من زوجته : أم رومان ، واسمها
 زينب أو دعد ، مختلف فيه . كما اختلفوا في نسبها ، وانفقوا
 على أنها من كنانة .

وكان قبل بدء الصديق بها زوجها لصاحبه في الجاهلية عبد
 الله ابن الحارث بن سحيرة ، وولدت له ابنة الطفيل ، ثم مات
 فحلها عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحلفه .

ومن المستفاد على أنها كانت امرأة ذكية ، أسلمت وهاجرت
 ولقيت عنتاً شديداً ، في سبيل دينها وروحها ، ويرى عن النبي
 عليه السلام أن قال : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الخور العين
 فليتنظر إلى أم رومان » .

وقد اختلفوا في سنة وديها . من قائل : إنها توفيت في حياة
 النبي صبه السلام . لى قائل : إنها عاشت إلى أيام عثمان
 بن عفان . والأرجح في رواية البخاري أنها عاشت إلى أيام عثمان
 ولا يعرف على التحقيق في أي سنة ولدت السيدة عائشة رضي
 الله عنها :

ولكن تقرب لأقوال إلى الصديق وأحررها بالرسول أنها ولدت في
 السنة العادية عشرة أو الثانية عشر قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت
 الرابعة عشرة من عمرها أو قد بانها يوم بنى بها الرسول عليه السلام

وحملت ما يذهب من وصفها على التحقيق أنها كانت يمساء ، فكان عليه السلام يبقها الحمير ، كانت أقرب إلى الصون ، لأنها كانت تعيب القصر ، كما مر في كلامها عن السيدة صفية ، وكانت في صباها تحيلة أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الدين محمد بن هودجها خالياً يحبرنها فيه . قالت في حديث لها مشهور : « وأقبل إلى رطل الدين كنوا يرحلون لي - أي يحسبون الرجل على العسر - فحملوا هودجي وهم يحسبون أمي فيه . » رأت النساء ذدا . حفاً لم يهبر ولم يعشهر اللحم . ثم يأكل بعضه من الطعام . فلم يستكثر القوم نفس اليهودج حين رحلوا . رفعوه ، إذ كنت مع ذلك حاربه حديث أس .

ثم رأت بعد ذلك إلى شيء من السمعة كما جاء في كلامها في حديث آخر . « خرجت مع النبي ﷺ في بعض سفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال ﷺ للناس تقدموا فتقدموا . ثم قال . تعالي حتى أساقك . فسايقته فسكت . حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال ﷺ للناس : تقدموا . فتقدموا . ثم قال . تعالي حتى أساقك فسايقته فسبقتي فحملت . يصحك ويقول : هذه بتلك . »

وعنت من بعض أحاديثها أنها وعكبت مرة فسمروا شعرها . فمن ثم وصفتها على ما يظهر بالشعر حيث يقول . « إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه . »

وعلمت من رواية وفعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت ، تنطق العسكر من هودجي في ساحة الحرب فيسمع خطابها

وعلمت من حصة أوصافها وأحبرها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأهم العصبيين من النساء والرجال ، وكان أبوها عريش من أصحاب هذا المزاج ولا مراء .

والتظاهر أنها ورثت عنه كثيراً من خلقه وحلفه على سوء . فقد كان الصديق جديلاً حتى جاء في بعض الروايات أنه لعب بلعيق لجماله ، وكان نجيلاً دقيق التكوين كما هو مشهور ، وكانت فيه حدة طبع مع حدة ذكاء . وكان كريماً سريعاً إلى نجلة المعمرين والصعفاء ، وكان صادق المقال به يؤخذ عليه كذب في الجاهلية ولا في الإسلام ، وكان ماضى اللسان قديراً على إفحام من يحترق عيه ، وتشبهه السيدة عائشة في هذه العلائق شبيهاً كذب يوحى إلى النبي عليه السلام كلما سمعها تجيب من يسأله أن يقول : إنها ابنة أبي بكر ! إنها ابنة أبي بكر

وقد رصب حذنها رماً كذب كذب أبوها يروى حديثه طوال حياته ، ونكها لم يلع من ذلك ما بلعه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة إلى سياسة الدنيا . ومكان الفتاة من الضعف ومن الحطوة التي تعيها عن الصرامة في معاملة النفس ومراس الحطوب هي كعاج الحجة

والمعهود في أخلاق الناس أن الحدة تلازمها سرعة الغضب ، كما تلازمها سرعة الصفح واللسان في معظم الأحيان .

وليس هي أحسن السيدة عائشة مما يناهض هذه المشاهدة التي تعم النساء كما تعم الرجال ، فليس مما ينقصها أنها رضى الله عنها بقيت على موجدته من مسألة الإفك ، طوال حياتها ، فلم تنس مفاة أحد من القائلين أو الساعين فيها . إذ ليس أهول على

نفس الفتاة خاصة ، ولا أوجع لضميرها ، من معلن يهدم سمعتها ويعصف بهائها ، ويقدحها الرجل الذي تحبه والمكانة التي تبوأنها ، وأهل ما يكون ذلك على السيرة العزيلة التي يهونها الأمر على قدر ظلمها فيه وعلى قدر نكبتها بما تفننه من العزة والسعة . فلا يقاس على موجبة السيدة عائشة في مسألة الإمك مائر خلافتها وخفاف ضميرها . فليس في غير هذه المسألة ما يتم على شيء يتجاوز الحدة انماضة إلى الصعية الباقية .

حدث مسروق الهمداني قال . دخلت على عائشة وعندها حسان وهو يرثي يتأله ويقول :

رِإَنَّ حَصَنَ مَائُونُ بِرِيَّةٍ وَنُصِيحُ عَرَفَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
فَعَلَتْ عَائِشَةُ لَكِي أَنْتِ كَذَلِكَ نَقَلَتْ لَهَا أَبَدُ حُلِ
عَلَيْكَ هَذَا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي تَرَى كِبَرَهُ مِنْهُمْ لَهُ
عَذَابٌ عَظِيمٌ . فقالت : أم تراه في عذاب عظيم ؟ قد ذهب
بصره

وهذا لأن حسان بن ثابت كان ممن نسب إليه شعر في مسألة الإفك لا يرضى السيدة عائشة .

على أنها قبلت خبره ، كما جاء في رواية أخرى ، وبهت عن شتمه وذلك فيما رواه يوسف بن عمار عن أمه حيث تقول : كنت أطوف مع عائشة بابيت ، وذكرت حسان وسبته ، فقلت : يا بني ما فعلت ! أتسببه وهو الذي يقول

قَبِيلُ أَبِي وَالِدَةٍ وَعَرَضِي لِعَرَضٍ مُحْتَمِدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

فقلت . ليس ممن لعن الله في الدنيا والآخرة بما قال فليت ؟ قالت : لم يقل شيئاً ولكنه الذي يقول .

حَصَنُ رِإَنَّ مَائُونُ بِرِيَّةٍ وَنُصِيحُ عَرَفَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ
فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ جَاءَ عَنِّي قُلْتُهُ فَلَا رَمَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنَّمِلِي
وقال هشام بن عروة عن أبيه : كتب عدداً عما عثته ، فمَرَّ
بجندة حسان بن ثابت ، فبنت منه ، فقالت : مهلاً ، وذكرتها
كلامه فقالت فكيف يقول :

قَبِيلُ أَبِي وَالِدَةٍ وَعَرَضِي لِعَرَضٍ مُحْتَمِدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

ولا شك أن الذي ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذي صعبت عنه بعد ذلك كسر ، ور حمد الصمغ هنا أولى من ملاحظة التذكير والتكيب

أما كرم السيدة عائشة فيه إلى لحنه ، تقرب منها إلى السجاء . وهي فيه عن أسأل من بيها العظيم ينشأ ، تنفذ من الأمر وتنفذ من البلاء ، وتعطى من هو في حاجة إلى العون العاقل ما تسر لها العطاء ، وكانت في كرمها على حال سوء في أيام النبي عليه السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذي هي أحرص إليه ، أو في أيام الفتوح التي تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور

كان لعنة بن أبي أسيد جارية حبشية اسمها بريدة زوجه على غير رصدها عدداً من عبيد المميرة فكرهه وأعرضت عنه ،

وهي أهل اليمن هو أصلح وحب منه . فزعموها السيدة عائشة
فاشترتها وأعتقتها ، وحادثت فيها النبي عليه السلام فقال لها :
سكنت معك فاحترارى ؟

وكان روحها يتعلق بها وتتبعها حيث سارت وهي معرضة عنه ،
مستعجبة ليس بين اصحابه يوماً من لوط حبه لها وزهدها فيه ،
وقال لها : اتقي الله فإنه روجك وأبو ولدك قالت : أتأمرى ؟
قال : لا ، إنما شافع بقلتي . إذن لا حاجة بي إليه

وما زالت بعد ذلك في خدمة السيدة عائشة تخصص لها وتذكر
لها مصلحتها عليها ولا تسمى لها حميتها

و زعموها علي بن عبد الله الحلق السمع أنها رزقت الغدوة الفرسية
سيد المومنين لضعفاء ومعلم الحارثيين لكسر الموب ، فم من
سوء بلعت في هذا المعراج الرفيع إلا ارتفع به رسول الله إلى أعلى
من وأحسن . كان عنده فتنة سمكة سمها الفرعة باب أسعد
من حبه سجد من حذر الانصاري . وسارت معها في رحلتها إلى
بيت زوجها فلما عادت سألها عليه السلام ما كان معكم لهو
فردت : نعمت الانصار ؟ هلاً نعمتم جدية نصرت بالذئب ونعمي ؟
ملكه ماذا يقول يا رسول الله ؟ قال : لا يقول أياكم ثيابكم
محبوباً بحبيكم . وبولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم ، ولولا
الحظ السراء ما سمعت عذاريكم .

حدثت مولانا في دره - وهو من الثقات - أن ابن الزبير بعث
إلى السيدة عائشة بعشرين ديناراً فيهما مال يبلغ مائة ألف درهم ،
وكانت صائمة . فلذعت عبق فجعلت تقسم في الناس . ثم
أصب فعمالت : يا حارية هاتي فطري . قلت أم ذرة : أما

استطعت فيما أنعمت تشتري بدرهم لحد تقطرين عليه ؟ فقالت :
لا نعمتيني الو كنت أدكوتني لفعلت .

وقال ابن سعد عن عروة بن الزبير : رأيت عائشة تصدق
بسمين ألبا ، وأنها لترقع حبيب ذرعها .

وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان رواها
من الثقة أنها رضى الله عنها كانت مشهورة بالكرم والإحسان إلى
مستحقه .

وقد كنت بنت أبيها في أكثر من حصة واحدة من هذه
الحصص النادرة بين الرجال والنساء ، وبكتها كنت أشبه ما تكون
به في حصة الصدق التي بها شتهر ومن أحبها نعت بالصديق ،
وخلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذي
دعاه به أبوه . وقد امتحن صدقه في مأزق عسيرة البلاء لسعوس
ونمحصت عن معدن كبريه وعرق سليم وولت على أصاله هذا
الميراث لمعيس من أبيها العظيم . فهي العاشية التي أطيقت
عسى العالم الإسلامي من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت
لأحاديث الموصوعة من ها وهناك ، وتعهد أناس أن يصوغوا من
عندهم حديث لكل حرب نصره ويرصيه ، وبكت حصصه
ويخزيه . واهتن الرصاع في محاكاة الأحاديث النبوية ذلك
لاعتنان الذي شفى به المحققون للروايات بعد ذلك سمين ،
وكانت السيدة عائشة تشرط في حصومات المتخاصمين على
الخلافة باختيارها أو تساو إلى المشاركة فيها على كره منها ،
وكانت هي أول من يُسمع به إذا روت حديثاً يدع خصومها ويعبر
نصاها . وبكتها لم تنف قط هي كن ما نلت سبته إليها حدث

عندها علمنا فيه . وقال عطاء بن أبي رباح : كنت أنفخ الناس ، وأعمم الناس ، وأحسن الناس وأبنا في العامة . وقال مسروق الهمداني . رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكبر يسألونها عن العرائض . وقال عمرو بن الربيع : ما رأيت أحدا أعلم بعفة ولا طلب ولا يشعر من عائشة .

ومن الأحاديث التي ترفع إلى النبي أنه قال : خذوا شطو دينكم عن هندي الحميري ، وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح ، ولكن الحق الذي لا مرأى فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نبهم وأمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام

ولا ريب أنها كانت تفتدي أيها في حفظ الأخبار والأنساب كما كانت تقيس من مبادئ أخلاقه وطباعه وملكته . ويستمد من بعض الموقوف عليها أنها كانت توافقه إلى معرفة كل ما يعرف من تواريخ الأمم غير فائنة بأخبار الأمة العربية . ولا بالأخبار التي تعنيها خاصة كاختيار النبي والصحابة والعشيرة الإسلامية ، ومنها خبر الحاشي حين هاجر المسلمون إلى بلادهم . فأورد إليه المشركون جمعة منهم يحملون إليه الغنائم والنقائس ليضرب بأذنك المهاجرين أو يردهم إلى قومهم ، فقال : ما أحد لله من الرشوة حين رد على ملكي فاحد الرشوة منه . وما أضع الناس في فطيمهم فيه .

فحق على السامعين معنى كلامه هذا حتى بيع السبي عاتشه ففسرته بما انتهى إلى صحتها . وهو أن هذا التجاشي كان من الأسراء المعضويين فأنصه الملك الغاصب وباعه ببيع الرقيق . ثم أعيد إلى ملكه ، فأنصى له حل الذي اشتراه حقه ، وأمس هذا الحاشي إلا

أن يعطوه الرأهم من أموالهم ليجزيهم بصنيعهم ، فمذ لك إذ يقول : ما أخذ الله من رشوة حين رد على ملكي فاحد الرشوة فيه . وهو تفسر لا يعنيها هنا أن نستقصيه من الوجهة التاريخية ، ولكن الذي يعنيها منه شغف السيدة باستطلاع أخبار الأمم كافة حينما تسي لها سبيل الاطلاع .



وغررة الاطلاع بينة - إلى جانب هذا - من لغة السيدة عائشة التي امتزجت بأسلوبها في كل ما نقل عنها ، ولا سيما المخطب والنوصف خاصة . فقد كانت لها مادة من اللغة لا تنهيا بغير محصول كبير من أبناء العربية التي تسمى من أعرق مصادرها

قلبت في حطة بعد وقعة الجمل تذكر أباها . وأمس ثامر لسر الله ناشهما ، وأول من سمى صديقا ، مصفى رسول الله عليه ورحمته راس ، وقد طوق وهو (إمامة) ، ثم صطرب حتى الدين ، فأخذ بصره ، وبقى لكم أثراء ، فوجدت انصق ، وعاصم فع الرثة ، وأطفأ ما خشت يهود ، وأتت يومئذ حنظ العيون ، تتطرون العدو ، وتستمعون الصيحة ، فرب الثأني ، وأمة (١) مسقاء ، وامتناع من المهرأة ، واحترق دهر الرواء (٢) حتى أعض الوارد وأورد الصدر ، وعمل أساهل (٣) فقبضه الله وطئ على هام الهوى ، شذبا ناز الحرب للمسركين ، فسطب طاعتكم

(١) حبل يمسك في القتل . (٢) ريقه فلهذه له من الرقيق وهو حبل له عرى .

(٣) كسر (٤) أي رفع فعتي وأصلح لفظ . (٥) أي عند

(٦) امتناع من لم يولد أي أسقى من البئر العظيمة ، وأجود من البراء أي أخرج حيا

السيد العربي .

(٧) سهل أو الشرب . وقيل : السقي بعد شقي

زوج النبي

كانت السيدة خديجة - رضي الله عنها - أول زوجات النبي عليه السلام ، وأحسن إليهم ، عاش معها إزاء خمس وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها ، ولا فكر في الزواج بغيرها في حياته مع به يسى بها وهو في نحو لخامسة والعشرين وهي في نحو الأربعين ، وبقيت معه إلى أن أوتت على الخامسة والستين .

في توفيت حوالي السنة العاشرة بعد الدعوة ، فلم يعرف عنه أنه حزين على أحد قط أشد من حزنه عليها ، ولا أحال الذكرى لأحد فقد بعد وفاته كما أصاب ذكرها ، وسمى عام وفاته (عام الحزن) ، لأنه لحزن لم يعترفه حوال أيمة ، ولم يعارفه - في الواقع - بقيه حياته كلها ، وإن سكنت صدره مع الأيم كما تسكن كل سورة لأحبة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور .

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات .

مكث لتقابل بين الزوجين من أنم ما تأتى به المصادفة حين تكون المصادفة أحكم من لتدبير والتقدير ، ولعل هذا لتعديل لم يخص من الحي من نقصد الحق وإن لم توجه إليه أنية في وصوح .

يسول أن النبي عليه السلام كان أحوج إلى هذا التقدير المحب في حياته الزوجية .

ولمضى ليتيم جمع في حان لامومة منذ الطفولة الساكرة ثم يكن أنفع له من روجة كريمة ، شيلة كالسيدة خديجة التي

أغدقت عليه من حان الأمومة ما فاته في بركير الطفولة ، وأدركه عطفها وهو يبالغ من نوازع الدعوة النبوية ثورة مقيمة - مقعدة في سريرة النفس ، لا تزال بين الحنلة والضموض وبين الإقدام والإحجام ، ولا يزال في هذه الحلة على حاجتها القصوى إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع .

أم النبي في الخمسين من عمه فقد كان أمتع له وأبهج عزاءه أن يعاق حان الأية على روجه أسى نظفره بالحطوة والمودة ، وأن يستروح من شابها وجمالها نعمة تسعده في جهاده وزيها يظلمه في وحشة عمره .

كانت خديجة أمًا ترواه .

ثم كانت عائشة طرفة تنعم بتدليله .

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة .

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال .

وكانت خديجة تل الدعوة وهو يطلب الأنصار في طرفة النفس قبل أن يطلبهم في عالم الفضال والألاء .

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاب حب دين جهر وبهر ، فكانت هي أول مسفرائه بإلههار إلى رجالات العرب ورؤساء العشائر والبيوت .

كان تقابل بين الزوجين لتفصيل من أعجب ما تأتي به المصادفة ، بل من أعجب ما يأتي به التدبير ، وليس هناك تدبير معروف .

فأندى سلمه من خطبة النبي عنه السلام للسيدة عائشة أنها كانت من لمصادفات التي لم يتحدث بها قط قبل أن تفتوح عليه

معهم إنه عليه السلام قال لعائشة يوماً : «أرأيتك في المنام مرتين ، أرى أنك في سرقة من حرير ، ويقال : هذه امرأتك ! فأكشف عنها فإنما هي أنت فأقول : إن يك هذا من عبد الله بفضله .»

ولكن الحديث يدلنا على مبلغ ما كان في ضمير النبي عليه السلام من هذه التهمة ، وقد يفهم منه أنه كان عليه السلام يناجي نفسه الشريفة بأمنيت في أرواح ، تطابق السيدة عائشة مثلاً هذه الأممية ، وكان هذا من بواعث حبه لها لمصافحة الرؤية ، تمثله في الرؤيا .

لما الخطبة الذي تعلمه من الروايات المتواترة أنها جاءت بعد اقتراح من سيدة بارة النساء بالحطه من حره على زوجه المريد عليه . فقالت له : «أى رسول الله ! ألا تسروج ؟» فسأله : «من ؟» قلت : «إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً» ثم سأله عن ليك هذكرت عائشة : «بنت أحب خلق الله إليك» . وسأله عن النبي فذكرت سودة بنت زمعة فأوقفها إلى بيت أبي بكر وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزوج بعد سنوات .

هذه السيدة هي خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون من أحلاء الصحابة الذين حاربوا الحمر في الجاهلية وعاش بعد الإسلام عيشة النسيك والحكمة . وفي حديث الخطبة أنها ذهبت إلى أم رومان - أم عائشة - فحدثتها فأنزلت . فدخل الله عليكم من الخير والبركة أقابلت روماناً ؟ قالت : لم ألق رسول الله أخاطب به عائشة . فاستمعتهن حتى تروى أبابكر وقيل إن أبا بكر سأل حين بلغه الأمر ، وهل يصلح له وهو

بنت أخيه ؟ يظن أن المؤاخاة بينه وبين النبي قد بلغت مبلغ القرابة التي تمنع المصاهرة فكان جواب النبي لها : «تولي له أنت أحمى هي للإسلام وأنتك تحل لي» ، كما جاء في هذه الرواية

والى هذا الحين لم يكن في تقدير أحد أن صلة من أوثق الصلات مستعقبة بين النبي وصفيه للحميم . لأن عائشة كانت محطبة قبل ذلك لجبر بن مطعم بن عدي من أصحاب أبيها من الجاهلية . فتخرج أبو بكر من بفض حبيبته قبل مراجعته فيها ينويه ، وقاتل أم رومان روحته . والله ما أحلب أبو بكر وعداً قط . ثم لقي أبا لفتى وأمه يسألهم فيما يتنويانه . فأدبل الأب على أمرائه يسألها . ما تقوين ! فالنفس دأب إلى أبي بكر وهي تقوى مشعللة : «علنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك نصيبه وتدخله في دنت الذي أنت عنه ! فلم يجبها وسأ زوجها» . ما تقول أنت ؟ فلم يزد هلى أن أجاب : «لها تقول ما تسمع

فعلم أبو بكر يومئذ أنه في حل من نقص وعده بمطعم بنى عدي ، واستعمل النبي حاطباً . فمست الخطبة في شول سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة ثلاث سنوات ، وأصدقها النبي عليه السلام أن يعمائة درهم على أشهر الروايات .

وتحسب الأقوال في سن السيدة عائشة يوم رقت إلى النبي عليه السلام في السنة الثابتة بالهجرة ، يحسبها بعضهم تسع ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات .

وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم ثم يتعدوا تسجيل المواليد . إذ قلما يسمع بإنسان - رجلاً كان أو امرأة - في ذلك العصر ، لا ذكر له تاريخاً أو ثلاثة لميلاده أو زوجه أو وفاته . وقد سلخ

الاختلاف بين تاريخ وتاريخ في تراجم المشهورين فضلاً عن
الخامسين عشر سيم

والأرجح عدداً لأن السلسلة نائمة كانت لا تقبل عهد زعمها إلى النبي
عليه السلام عن الشية عشرة، لا تتجاوز الخامسة عشرة، أكثر
نقد جاء في بعض النواثيل من طبقات ابن سعد أنها خطبت
وهي في التاسعة أو السابعة، ولم يتم الرفاف كما هو معلوم إلا
بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال.

ويزيد هذا الترحيح أن السلسلة حولة اقترحها على النبي وهي
من سن خمسة سروح على أقرب التقديرات إلى القول إذ لا
يعقل أنها تسع من حولة لوحدة التي دعيتها إلى شرح سروح
عسى النبي وهي سنة أن سعى هي تلك حولة مع مسد أو
حمد مسد أخرى

ويزيد هذا الترحيح، من غير هذا الحامب، أن السلسلة عائشة
كانت محظوة قبل خطبتها إلى النبي، وأن خطبة النبي كانت
في نحو السنة العشرة للدعوة.

فيما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن
الخطبة، وهي قرابة التاسعة أو العاشرة، ويميد حتى أن تتعد
الخصه على هذا التقدير مع توافق الدين بين الأسرتين

وبعد أن تكون قد وعدت لخصها، هم وليلة صبغة كما يتفق
أحياناً بين الأمرين للسلكة وحشد يكون أبو بكر مسلماً عند
ذلك ويستبعد خطأ أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن
تفعل الأسرتان على الإسلام.

فإد كان أبو بكر يحيى قد وعد بها ذلك ابوعبد قبل إسلامه،
فمعنى ذلك أنها ولدت قبل الدعوة وكانت قناهر العاشرة يوم
حرى حديث واجها وخطبها النبي عليه السلام.

ولهذا يرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم
زفت إليه. ونها هي - رضى الله عنها - كانت تسمع تقديرات
سعد بن كاه حولها لأنها لم تقرأ بداهة في وثيقة مكموية،
فكان يصحبها على سنة الأنثى الخالدة أن تأخذ بأصمها، وكانت
هي كثيراً ما تلب بالصفريين أترابها فلا تنسى إذا انتصى الحديث
ذلك أن تقول. وكنت يومئذ حارة حديثة السن، أو كنت يومئذ
صغيرة لا أحفظ شيئاً من القرآن، إلى أشياء ذلك من أحاديثها
في هذا المعنى

ذلك هو التقدير الراجح الذي سعى ما تقولك المستشرقون على
النبي بصدد رواجه بعائشة في سن الطعونة المبكرة، ولكن تقدير
غير ذلك فهو تقدير مرجوح.

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى،
لأنها كانت تدعى فيه بمكة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف.
وبمكانة البسوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة، ومكانة ابنة الصديق
العزير التي أسمى عليها المودة والإشارة كان بين النبي والصديق
مودة هي أوئل وأبقى من مودة الرجم، لأنها مودة الوفاء
والإعجاب والإيمان، أو مودة الحياة وما بعد الحياة.

وقد سجلت لك السيدة عائشة حطرات نفسها حطرة خطرة
ووصفت لنا في بيتها الجديد كل صغيرة وكبيرة طاهرة وحديثة.

ولكنها لم تذكر لنا قط كسرة واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت ، ومن معيشة إلى معيشة ، ومن ظل أبوين إلى ظل رجل غرب عنها لا يعرف عنه إلا ما تعرفه عن النسي كن صبية مسددة في مسها الباكورة . لأن عطف محمد ﷺ هو العطف العام الذي لا يلجج إلى عطف سواء ، وقد أغشى ريذاً عن أبيه وأمه فأثر حياة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه ، فأخبر بمثل هذا العطف أن يغنى الفتاة التي تأوى إليه ، فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق .

وبركها على مسجيتها تلعب بلعرائس في بيت زوجها كما كانت تلعب بهن في بيت أمها وأبيها . وربما جاءها صواحبها الصغار « فيصمن - كما قالت - بن رسول الله ، فكان عليه السلام يسير بهن إليها ليلمن بها » .

وقلب جاريها بريرة تصنها وهي في السوات الأولى من زوجها : « ما كنت أعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت جارية صغيرة أعجن المجين وأمرها أن تحمله فنام فتأني الشاة فتأكله » .

وكان عليه السلام يتعبد بها بما يسرها ، وإن صعب الصحابة الذين لا يفهمون وذر الدس كما بعهم ولا تسع صدورهم بما يتسع له صدره . ودخل عليها أبوها وعسا قيتان تغيان في يوم مني والنبي عليه السلام مضطجع مسجى في ثوبه ، فصاح بها . أعند رسول الله يصنع هذا ؟ - فكشف النبي عن وجهه وقال دعهم فنه أيام عيد .

وكان السودان يلعبون في يوم من أيام العبد بالمدى والحراب فسأها عليه السلام : تشهين أن تنطري ؟ قالت . نعم . قالت

« فأنامى وورعه عدى على خضه وهو يقول . بولكم باننى أرفده كنية الحبشة - حتى إذا ملث قال - حببك ؟ قلت : نعم ! قال : نادى » .

وربما ما أبوها ﷺ يلبث فيسمع صوتاً غليظاً في حضرة النبي عليه السلام . يبذل عاضباً يتناولها ليلطمها وينهرها قائلاً : لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله فيبص عليه السلام ليحجره ويقول له بعد حروجه رأيت كيف أعتدتك من الرجل ؟ وبى هو من هذه المرات خرج أبو بكر معصاً ثم عاد بوجودهم قد اضطج .

فقال لهما : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما .

فدأ النبي : قد دعنا

وسم يحب هذا العطف الذي لا نظير له بين لأرواح على السيد عائشة ، « هي ما هي في ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها رازدات » علماً يوم شاركها الرميلات في بيت النبي ، وقد شاعت الواعى السياسية والدينية في تعدد روحاته ، وتعددت صلات المصاهرات به وبين قتائل العزيزة العربية ، فقد عرفت مكانها وهي بين سبع من الرميلات . كما عرفت مكثها وهي موشكة أن تفرد في ست السوة ، وكان عليه السلام يعدن بيها وبين رميلاتها فيما يملك لعدله فيه . أما ميل قلبه فكان يستغفر لله فيه قائلاً « اللهم هذا قسمي فيك أملك . فلا يلغى فيما نملت ولا أملك » .

وشكرت له هذا الإيثار ، وفخرت به في معارضي حديثها كلما سألها معرضاً للشكر أو للتحدث بنعمة الله عليها . ففصل عليها النبي يوماً قصة النسوة الإحدى عشرة التي احتضرن معاً كرن أوصاف أزواجهن من حبر رشر ، وكانت الحادثة عشرة مهن - وهي أم زرع - مَحَبَّةً لزوجها ، فوصفته بأحسن ما يوصف به لأرواح في السر والعلانية . فقالت السيدة عائشة : « نبي وامي لأنت يا رسول الله خير لي من أبي زرع لأم زرع » .

وهي القائلة بعد وفاة النبي في مرياتها التي اغتصب بها دون أثرها : « فصلت على نساء النبي ﷺ عشر اسم ينكح بكراً قط غيري ، ولا امرأة أبواها مهاجراً غيري ، وأنزل الله برأيتي من السماء ، وجاء جبريل بصورتني من السماء في حورية ، وكنت أغتسل أنا وهو في إماء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نساء غيري ، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري ، وكان يترى عليه الرحي وهو معي ولم يترى وهو مع غيري ، وفصل وهو بين محبتي ومحبي ، وهو البينة التي كان الدور على نبيها ومن في بيني » .

وكان هذا التمييز سرّاً ثبت النبوي في مبدل أمره ، ثم شاع في الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها بسبعين به إلى النبي وهو في بيت عائشة .

ودفع التغاير الذي لا محيص منه بين الزوجات ، ، سأل إليه إحداهن أم سلمة ، فأعرض عن حديثها فلات مررت ، فلما أنفلت عليه قال لها : « لا تزدني في عائشة . لهذا الوحي لم يأتي وأنا في ثوب امرأة غير عائشة » . يريد بالشوب البيت لي

بعض التفسيرات ، ومن قوته ثاب إليه شوب فهو في الشوب الذي لا يزال يرجع إليه .

وتوسل للنبي وطمة رضي الله عنها لما يعلم من قبول أبيها لكل شناعة تأتيه منها ، فقالت له : « إني نساءك يشككك الله العدل في بيتي بكر . قال لها : « الله ! ألا تحسن ما أحب » . قالت : « بئس . قال : فأحبي هذه » . يشير إلى عائشة

وسير عن الزم . لا تالم . است . يركن حب النبي لعائشة . وينعطن أنها كانت أحسن حباً إليه وأقربهن جميعاً إلى قومه ولكن الذي لم يكن يسير عبيهن في يدوكته أو يلحفنهن أنها هي رضي الله عنها كانت أشد من حبانه ومغاضة إلى نفسه وتصاله عليه وله

فكلهن كن يحببه ويتنافس على قربه ، ولو كان فيه التنافس على الموت وهو الذي لم يه . وحدثهم يوماً عمن يلحق به بعد مرقه الدنيا فقال : « سرعتم حداثاً في طولكن بذا » . جعل يمسن أيديهن ، وما مهن إلا من تقمى أن تكون من صاحبة لسانه لولي ثم مه لهن . المراد بالظوء ها طول اليد بالصدقة والعمل الصالح . تبين زميلتهن زيب بيت جحش لأنها استحققت اللحاق به عملها بيدها واكثارها من الصدقات على مسحتها .

إلا أن الحب الذي يبدو من لينة عائشة لسائر النبي أعظم وأقوى . فما مهن من تصفت بنفسه كما لصقت بها . ومن

ولقد تكون هذه السيدة المفضلى التى أصبحت من كل فتوى نسوية مثلت عنها وهى ما تأذن لعمها فى الرضخ أن يراها إلا بعد مراوحة السى عليه السلام . فأنسويها في تفصيل السن السوية والفروع الشرعية إن كان فريضة الأمانة ومصرية الوداء ، ولم يكن قيمة الطبع واللسان

ودعت هذه الحماة الروحية الناضرة ، هاء تسع سنين إلى أن توفى السى عليه السلام .

ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين آواح الهداة والعطاء من ضرت بأسعد منها أو كنت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها .

ففى طوائف هذه المسين لم تمنح هذه الحياة فقد نكدر أو مساءة تعود بها المتعة على أحد من الر حين

وأحظر ما ألم بهذه الحياة الزوجية فى السنين التسع كلها حديث لإبك وعصب السى من زواجه جميعاً لتنازعهم فى فترة من الزمن والحافهن عليه من طلب المريد من السعة والريفة .

فأما حديث الإفك فلا يد حزوجين فيه ، وقد امتحنت به أرحمة السى وعظفه على أهله ، فأسفر عن خير ما تطمح إليه أروجة من حور وبسماحة وعراة وأما عصب السى من زواجه لتنازعهم وإلحافهم فى طلب السعة فمعرض مضى مرة ومضى أمثاله عشرات العرات من كل حياة زوجية بين جميع طبقات الناس ، وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن

على ضرورات العيش كما يصبر السى عليها ، لأنهن قدوة فى القناعة ومبالغة الهوى ، ولسن بقدره فى السرف وبعدة العيش . وقد خمرز بعد هذا الدوس بين التسريح والصبر على نصيبهن فاحترق أجمل النصيبين بهن ، وهو لصبر على منه الأسياء وأمهات المؤمنتين

ومما لا شك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها لأسى فى هذه الحياة الروحية لشراء لا حيلة لها ولا نلى فيه ، وهو الحرمان من الذرية السى كانت تنوق إليها كما تنوق كل أنسى ، ولا سيما بعد ما علمت من حب السى لزوجيه الأولى ووفائه بعهدا وبرديده لذكراها لأن له البين والبنات منها

وظهر ألسها هذا حين قالت للسى وهى حرة كاسفة . كل صواحبى لهن كسى ! . . قال فاكتنى ، أنت عبد الله ! يشير إلى عبد الله بن الربير ابن أختها أسماء . . فحمت تكنى به ونحبه لث الحب الأموى الذى يستمد القوة من الحر والشوق والحرمان .

وانععت الأقول على أنها رضى الله عنها سم تحمل قط إلا رواية جاء فيها أنها أسقطت ولذا سماه السى عبد الله فكانت بهذا تكنى بأمر عبد الله

وراقها أن تدعى أم المؤمنين وأن يناديها الناس يا أمه يا أمه ، فكان فى هذا السناء تعرية كما كان فيه شوق وذكير

والعراة لا يهون عليها فقد الدورية ، ولا سيما إذا أحببت الزوج الذى تود أن تزوق منه الذرية ، ولكنها إذ التمتت التهويس من تحذ يهياً أبر به وأروح لعلها من شعورها بعطف زوجها عليها . ونها سعت من ذلك العطف ما لا يريده لدرية التى تنسهاها

عن بيه عليه السلام : « وأصابني أبا بكر ريلالا وعاصم بن فهيرة ، فاستأذنت رسول الله ﷺ في عيادتهم وثبتك قبل أن يضرب عليا الحجاب فأذن لي ، فدخلت عليهم وهم في بيت واحد ، فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كُلُّ امْرِئٍ مُصْبِحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَقْنَى مِنْ شِرَاكِ نَحْلِهِ فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول

ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال لَمَّا وَجَدْتُ لَمَرَّتْ قَبْلَ ذَوْبِهِ إِنَّ الْجَبَدَ خَشْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ كُلِّ امْرِئٍ مُجَاهِدٌ بِطَرَفٍ كَالْعُورِ يَحْمِي أَمَّهُ بِرِزْقِهِ قلت : والله ما يدرى عامر ما يقول

وكان بلال قد أهدت عنه حمى يرفع عمرته ويقول : أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هُنَّ أَبْيَتُنْ لَيْلَةً بَوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ عَوَّ وَجَلِيلٌ ^(١) وَهَلْ أَرَدْتُ يَوْمًا مَبَاءَ مَحَبَّةٍ وَهَلْ نَدُّنُوهُ سِي شَامَةٍ وَطَفِيلٌ ^(٢) قلت عائشة : « فبحث رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : إنهم يهودون وما يعقلون من شدة الحمى . فقال : اللهم حَبِّبْنَا لِنَدْبَةٍ كَحَبِّبَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، وَصَحِّحْهَا ، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُذْهَا ، وَانْقِلْ حُمَاهَا فَجَعَلَهَا خُحْفَةً ، وَهِيَ فِي الطَّرِيقِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

فإذا كانت حمى البرد قد أصابت السيدة عائشة فيمَا دون العاشرة وطلعت عقابيلها تعوده ، فأسسم ما يمال هنا إننا جبال عارض ذي بال يلتفت إلي في تحليل ما أسلفناه .

(١) بيتان في وادي مكة أحدهما وهر الإذنه طيب الرائحة والأخر قشع

(٢) حبلان مكة .

و سألت أفاضل الأطباء في ذلك فقالوا : إن هذه الحمى لا تعطل الحمل ضرورة ولكنها قد تعطله بأن طريق إخراج البسم كله حتى يتغلب على عقابيلها . قلت : وإذا أخيفت إليها معيشة الكفاف ؟

وأما سألتهم هذا السؤال لأن المتوتر عن معيشة النسي عليه السلام في بيته أنه كان لا يشع من خبر الرأو الشعير ثلاث ليال متواليات ، وأنه لم يشع من خبز وزيت مرتين في يوم واحد ، وأنه هو وأهله كانوا لا يصيبون من لطاصم إلا بمقدار ما يدفع الجوع .

فكان من جواب الأطباء أن عقابيل الحمى وقلة الغذاء من الأسباب التي لا يعدونها النظر في بحث هذا الموضوع ، فإذا صححت مع هذا رويه السقط فهي طيل على أثر تركته الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة

وأي كانت هذه العولوص فهي كل ما لديها من أسباب المراجعة العلمية التي تعطل لنا حرمان السيدة عائشة رضي الله عنها من نعمة الذرية ، نلها بها ، لأن الإلمام بها لا غنى عنه في هذا المقام .

وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذي لا شك فيه أنه لم يكرر صفو ابودة والبر بين النبي وأهله ، وأنه لم يجمع هذه الحياة الزوجية أن تكون قلبة سمقتدين في العطف وأدب المعاشرة . وكانت هي العروة الوثقى كما وصفها النبي عليه السلام . فإذا سألت السيدة عائشة بين القصة والأمنية مللة يمكنها عنه وعطفه عليها : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ قال : « على عهدنا لا تتغير .

أما العلاقات البيتية لم يفرضها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة - رضي الله عنها - فقد كانت على أحسن ما تتسمى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة .

بهي ورميلاتها كن يتغاون ويساس لا محالة كما تتغاور النساء في كل مكان ، ولكنهن م ينسبن قط أنهن نساء نبي يتأدسن بأدبه ويتطلعن إلى رضاء ويفزعن من غضبه .

وقصاري ماسمعناه من قلنات العبرة على لسان السيدة عائشة أنها كانت تقول عن السيدة خديجة : « إنها عجوز حمراء الشدقين » ، ثم يعاتبها نبي فتتلم ولا تعود إلى مثل هذه المغالاة . أو أنها عابت لسيده صفة مرة فقالت إنها قصيرة . فاسكبر النبي هذه الكلمة وقال لها إنها لتمزج البحر ، مرجت به فلم يعد إلى مثلها .

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس الشديد في الجمال والزلفى منحت لزينب صانعة تقول فيها ما تقوله الضرة المحققة فلم ينس قمها بكلمة بأصل . وذلك إذ سألتها عليه السلام في حديث لإفك فاستعادت بالله وقالت « أحسن مني ويصري ، والله ما علمت إلا خيراً » .

وأحسن سورة إحدى زميلاتهما أمهات المؤمنين أنها أسئت وضعت ، فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها « ما رأيت امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سورة » .

فكل ما روى لنا من تغاور زوجات النبي إن ذكرن أنهن نساء من طينة الأئمة الخالدة فلم يمسسا أنهن نساء نبي يتأدسن بأدبه ، ولا

يجاوزن بالغيرة ما يجعلهن من كنهه ورعايته ، وإن نزع أحوات شقيقات من لب واحد وأم واحدة ليقع بينهما من شحنة الغيرة إذ جسمعن في بيت أسرتهن أضعاف ما روى لنا من غيرة زوجات النبي لم عشروهن الطويلة .

أما قرابة النبي فأعزها قدرًا عنه قرابه السيدة فاطمة وزوجها وبنيها .

وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبنيهم جميعًا على أكمل ما نرصاده السجية الإنسانية في كل صلة من قسلبها .

والسيدة فاطمة كانت أحب الناس إليه عليه السلام كما هو العهد بنون الشرففة التي تشمل الناس جميعًا بالحنان والمودة فصلا عن مائه وبنيه . وسئل - كما قالت عائشة مرة - من أحب الناس إليك ؟ فقال : فاطمة أ ثم سئل . ومن الرجال ؟ فقال زوجها .

وفاطمة حدث أم السعطين البذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلاطفهما ويوصي بهما ويسميهم وبنيه وهو مسوق إلى بحاب الأبناء . وهي كذلك بنت حديجة التي نعت عليها عائشة قدس مكانتها وظليل وفاء النبي بذكرها .

والسيد فاطمة والسيدة عائشة شريكتان في قلب واحد تافسان عنه ، ولكنها شركة بين كريمتين .

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أوفدن السيدة فاطمة إلى النبي لجعل بينهن وبين عائشة نفس الودة .

وربما خطر للسيدة عائشة أن علياً عليه السلام قد تأثر بهذه المناسبة يوم سألته النبي في حديث الإفك فقال : « ... لم يضيق الله عليك والنساء سوىها كثير » .

ومن الصدق للتاريخ ولطبع الإنساني أن تلاحظ هذه الأمور ، لأن الطبع الإنساني لن يدع حفره على أهبانه ، وس يكون الإنسان من لحم ودم إلا إذا كان فيه للحم والدم توزعهما التي لا فكاك منها ، وإن رخصها أدب النبوة ونبل العشيرة ، نشأت إلى أكرومة تجمل بالكرام .

بالصلة بين عائشة وقرانه النبي قد كانت صلة الأدب والحمل والمجاملة ، ولكنها كانت في محال لا يعيب فيه التدفد على العطف والإعزاز .

والمثل لها أيضاً فنوة المغندين في الأسر العليا التي عرفها التاريخ ، سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا .

وهي على الجملة « حيلة زوجية » سعيدة تربت معها السيدة عائشة منيرة الروححة المحملة في طول أيامها ، ثم سرقة الشريكة المعينة في عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة بها في هذه المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياه ، فحفظت من تعلم النبي ما لم يحفظه أحد . وحفظ عندها النبي أعلى الودع من بعده : صحف الكتب وسنة المنروحة لتابعيه

حديث الإفك

حديث الإفك هو حديث القصة التي أشاعها بعض المنافقين عن السيدة عائشة رضي الله عنها - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلوة ، وعيم المدينة المنورة الذي لم يكن قد حققه على النبي ولا على الإسلام والمسلمين .

وحديث الإفك هذا هو الحديث الذي اجتمعت له كل بوهة المصول والنشاية التي تمرى السنة الناس بالحوادث في أمثال هذه الأحاديث . ولو كانت من نسج النخيل واخراج القصد .

ومن داب الناس قديمًا أن يتطلعوا إلى الأسرار ، ويكتفوا القبي والقال في الإشاعات .

وهم أشد طبعًا إليها وكلفًا بالقبيل والقال فيها إذ اشتملت على وشية من وشايات الرجال والنساء ، ولولا كلمهم بهذا لم حترعت لهم القصص والروايات التي يترددون معها أحيانًا رجل لا وجود له وامرأة لا وجود لها ، وهم يعلمون أنهما من نسج الخيال .

ولكنهم شدد من طئت تطلعًا إليها ، وكلفًا بالقبيل والقال فيها . وإذا هي تعلقت بعظماء الرجال وعظماء النساء .

ثم يبلغ الطبع أشده والكيف حده إذا كان لأحد من الناس غرض في ترويج الإشاعة والسمعة به ، والاسترسال في ذبونها وحواشيها .

فإذا كن هذا الغرض على اتصال بالمعصيات القومية ، والمفائذ العامة التي تصطرع حولها الأهواء ، وتضطرم فيها الضغائن ، ويطول فيها جدل المصدقين والمكذبيين ، وتراعى المحبين والمبغضين ، فقد اجتمعت للقصة - كما قلنا في صدر هذا الفصل - كل بواعث الفسول والشااية ، وأحاطت بها كل معريات اللفظ والتشهير .

وهذا الذي حدث بحدافه في حديث الإفك الذي تولى كثره زعيم الحزج في المدينة عبد الله بن أبي بن سلول .
فهو حديث وشاية عن رجل و امرأة .
وهما أعظم الرجال وأعظم النساء .

وفي اللغط به عرض قوى لا كبير زعماء الحزج في زمانه ، وعرض قوى لكل من يغير المساس بالنبي ، وبالإسلام كله من طريق المسلس بنبي الإسلام

ولولا ذلك لما سُمع بحديث الإفك ، ولا استحق أن يُصغى إليه ، لأنه أَوْهَى وأضعف من أن يطول فيه تصحيح وتبديد

وكأن من رئيس في قومه وتبر كما وتبر ابن سلول ، واشتمل قلبه على السعصع كما اشتمل قلب ابن سلول على بغض النبي ، وأحب أن يهده دعوة من الدعوات كما أحب ابن سلول أن يهدم دعوة الإسلام ، ولكنه مع كل هذا شَرَعَ عن رحم المحصنات بالباطل ، وبمسك لسانه عن الخوض في وشايات الدس لأبها مسببة لا تجعل بمروية الكرام .

إلا أن ابن سلول لم يكن من هؤلاء الرؤساء المستورعين لشرهين . ولم يكن له من أخلاقه ما يعصمه أن يكذب وأن ينافق

وأن يدهر ، وأن يصطنع الشااية وبلغ في الأضرار ، لأنه كان مطبوعاً على النفاق مشهوراً به بين أصحابه وحشوه على السواء

كان زعيم الحزج بالمدينة ، فكان ينأص الأوس بها في رضاء النبي وأتريف إليه ، ثم يخلو بأعداء الإسلام فيؤلهم على المسلمين ، ويسول لهم قتل النبي ، ويوعر صدورهم على هذا الدين الجديد ، وكل منتصر له وكل منسب إليه

وقبيل حديث لإفك بأيام قليلة كانت فشة من الأضرار والمهاجرين تسنق ، فتنزع رجلا من منهما عن الماء ، كما يحدث عن كل مورد يكثر حوله القصاد فلم يدعها ابن سلول تنقض هو أن يشير فيها الدائرة التي ود أن تعصف بالمسلمين جميعين . وقال مستهولاً : أؤقد فصبوها ؟ والله ما أراها وجلاليت نريش هذا ، لا كما قيل : مسعن كذبك يا كذك أما والله لئن رجعت إلى المدينة ليخرجن الأعراس منها الأدل وأقبل على من حضره من قومه يحرضهم ويقول لهم . هذا ما فعلتم بأنفسكم . . . حلنهم بلادكم ، وقاسمتوهم أموالكم وأما والله لو أنكمم عنهم ما أيديكم لنحووا إلى غير داركم !

ومن الحديث إلى النبي عليه السلام ، فأسرع إليه ابن سلول . بقسم ويبلغ في القسم أنه ما نيس بحرف منه .

فالمعص في وشايات والولوع في الأعراس هو أشبه شرم بأخلاق هذا الرجل الذي نرد على انفاق ، وأصبح وأمسى حياته كلها بين الدس والاختلاق ، وله من الدن العظيم وتريه شفيح عند طبعه المقيم . لأنه أصاح المسك والناج بظهور الإسلام

قال أسيد بن خضير رعم الأوس يسأل النبي عليه السلام ألا يسع المدينة لعبد الله بن سلول ؟ يارسول الله ارفق . فوالله لقد جمنا الله بك وإن قومه ينظرون الحمر يتوجوه . فإنه ليرى أنك قد استلبه ملكاً .

ولا حرم يكون له غرض أى غرض من تزويج حديث الإثث واتخاذ مطعاً في الإسلام من وراء الطعن في كرامة نبي الإسلام . ولهذا لم يلبث ابن ألفت منه قيته ، فظهرت من يوافر لسانه في الكلمة التي قالها حين مرت به السيدة عائشة على جمل يقوده صفوان بن المعطل ، فقد حكى عنه أنه سأل : من هذه ؟ فقيل . عائشة . قال : امرأته نبيكم بات مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها !

وإن غرض ابن سلول هذا لهو بعينه غرض كل منشئ بحديث الإفك إلى يومنا هذا ، ليتخذ منه سبيلاً إلى الطعن في الإسلام ونبي الإسلام ، وبخاصة بين المبشرين من المستشرقين

فمن هؤلاء من غلب أدب البرية فاستبعد حديث الإفك كما فعل مور Mullر حيث قال بعد الإشارة إليه : « إن عائشة قبل الحادث وبعدة لتوجب عليها أن نعتد برعيتها من التهمة » .

ومهم من نقل الحكاية وحللتها بالمعجزات التي لا يصدقها غير المسلم كما فعل واشنظون إرفنج في مسيرة النبي عليه السلام . فلم يقطع بنعي صريح ، وترك الباب معوقاً لا يقبل .

ومنهم من جازو الحقيقة في وصف ما جاءت به الروايات ، فرعم أن السيدة عائشة اتعدت عن النبي يوماً كما نصته في صحبة صفوان ، خلافاً لما جاء في كل نسخة نقلت إلينا عن

حديث الإفك ، ونعنى به راديل Rodwel صاحب ترجمة القرآن ، حيث عرض لهذا الحديث في حاشية على سورة النور . وهؤلاء مع هذا هم أشد المستشرقين تقية وحذر في تعرضهم لهذا الحديث

لكن المبشرين المحترفين لم يتقوا هذه التقية ، ولم يحذرو هذا الحذر ، بل جزموا بصحة الحديث ، وفل بعضهم إن محمداً ستنزل الآيات في سورة النور ، ليحصى سبعة زوجته ، ويدين البشة بالمقاب الذي ورد في تلك السورة . وحملهم بالقرآن هو الذي أوقعهم في تلك الفرية الوضعة التي يحطون فيها على غير علم بمصادرها ومواردها ، فإن سورة النساء ، وهي سابقة لسورة النور ، بد نصت على أربعة لشهود في إثبات الزنا

وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا النَّارَ فَإِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنَاجِقُ مِنَ النَّارِ فَأَسْطَبُوا فِيهَا وَنَحْبُورُ
وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُجْعِلْ لَهُمْ تِجَارَةً يَبْتَاعُونَ بِهَا نَفْسَهُمْ وَكَانُوا مَعَهُمْ
وَالَّذِينَ يَتَّبِعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُجْعِلْ لَهُمْ تِجَارَةً يَبْتَاعُونَ بِهَا نَفْسَهُمْ وَكَانُوا مَعَهُمْ

وأخرون من أولئك المبشرين المحترفين رجعوا إلى تاريخ الغزوة التي جرى بعدها حديث الإفك ، ليقولوا إن الليلة كانت خمير قمراء ، وإن البحث عن العلف الضائع فيها عسير . مع أن الاختلاف على سنة الغزوة - فصلاً عن شهرها وبلتها - كثير يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة وما بعدها ، فجعوا هم وأحدوا بالقول الذي يعجبهم ويعينهم على فرتهم . هم حتى في هذا مغرضون متعسفون ، لأن بداء المسير إلى الغزوة في الشاس من شعبان لا يسع أن الجيش قضى أياماً في ذهابه ورجابه ، وعاد والليمة قمراء في صحو البلاد العربية . ولو كان في الأمر محل

اعتراض من هذه الساحة لما فات الذين حصروا الغزوة وشهدوا
النور والظلام في تلك الليلة ، وهم قصاص الأثر وأصحاب القمر
في الحل والسفر ، وفيهم من يحرص على التشهير كحرص هؤلاء
المبشرين .

ومن الإسف أن ينسج هؤلاء الوشاة في كل ما يخطو فيه من
إثم ، وكل ما رجموا به من ظن . كأن أخلاق الناس وحقوق
التاريخ رهن بما يتمخذه ووقف على ما يختلفونه وما كانت
وشاياتهم تلك بحثاً يستند إلى رأى أو ظناً يعتمد على قرينة ،
ولكنها كانت كذناً لا يبق بالمؤرخ ، وسوءة لا يبق للإنسان ،
وحسنه في حق امرأة شريفة لا يبق بالرجل الكريم .

وإنما أومأنا إلى ضروب من تلك الوشايات لعلم أن الحذر
واحِب هنا على قدر ضخمة الأعراض التي تخلق الوشاية وتنطلق
في ترويجها إلى أياما هذه ، وإلى ما بعد هذه الأيام ، ما دام في
الدنيا أساس يستريحون أن يجتروا بالشبهات على امرأة لا ديب لها
إلا أنها زوج نبي يريدون لتشكيك فيه

على أننا من الجهة الأخرى نبرئ السيدة عائشة من هذه
العتقة ، ولا نعتمد في التبرئة إلا على الفهم الذي يفهمه المسلم
ومن لا يدين بالإسلام . وبقوله صاحب الدين ومن لا يأخذ بدين
من الأديان ، لأن براءتها ليست من الحفاء بحيث لا تقام عليها
الليل إلا من وحى السماء .

وكفى حليلاً أن يسر على الظن بها أقل دليل .

شأ حديث الإفك بعد عودة النبي من عروبة بني المصطلق ،
وقد كان مسير الجيش في عودته من هذه العزوة مضطرباً أشد
اصطراب . شيوخ الفتنة بين المسلمين وأتباع عبد الله بن أبي
اس سلول رأس المنافقين وزعيم الحزج أموى قبائل المدينة ،
والرجل الذي جامله النبي عليه السلام كل معاملة كريمة ، ثم
يقطع عن عاقبه ، ولم يدع قط فرصة من فرص الكيد والتسوية

حتى ضيق العودة من عروبة بني المصطلق نجم ذلك الخلاف الذي
أشربا إليه على السقاية من بعض الأبار فصاح صائح : يألوهن
وصاح لآخر : يا لكتانه . بالقريش وشهر المرمك السلاح . فخرج
النبي فداً لهذه المصيبة التي كره أن يحيطها الخلاف في جيشه
وسأل : « دل دعوى الجاهلية ؟ ثم قال : دعوا فإنها منتنة .

واعتنه عبد الله بن نبي الفرصة فطفق يحصاً في الشار وبصبح
في كل من لقيه : « ما رأيت كاليوم مثله . والله إنني لقد ضننت
أنى سأمرت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت . أما والله لئن
رجعت إلى المدينة ليخرجن الأعز منها لآل . حتى قال
لأنساه : « لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أعراضاً
للمصاب فقتلتم دونه - يعني النبي - فأبغضتم أولادكم وقللتم
وكنتم ، فلا تعلقوا عليهم حتى يفضو من عند محمد » ، إلى
آخر ما قال ويلع النبي عليه السلام .

وشاع الخبر ، فأدب الناس علمه السلام بالرحيل في ساعة سم
يكن يرسل فيها لشدة الحر ، وسأله أسيد بن حضير : يارس الله !
نقد رحلت في ساعة منكورة ما كنت نروح في مثلها ؟ فقال : أما
بلغت مداد صاحبكم ! يشير إلى كلام ابن سلول

ثم سار الجيش سيرا حثيثا ، وجعل النبي عليه السلام يضرب راحلته بالسوط في مرأته ليستعجلها ، وانقضى اليوم وليته وصلوا من اليوم التالي حتى أخذتهم الشمس ، ثم نزل الناس فلم يلبثوا أن وجلوا من الأرض حتى وقعوا نياما .

ولما أخذوا في المسير هاجت ريح شديدة كادت تدفن الركب ، وحظر لبعض الجند أن عينة بن حصن ربا أغار على المدينة في هذه الفدحية لانقضاء مدة المرافعة بينه وبين المسلمين فكان هذا من دواعي المحبة واضطراب مواعيد الرحيل .

ثم دنا الليل وهم على بقية من المدينة ، فأباح الركب لمراحة ، وذهبت السيدة عائشة لبعض شأنها ، ثم تقفقت عفتها وهي راجعة فإذا به قد نسل منها ، فحسها التعاسة هنية ، ثم عادت إلى مكان هودجها فبذ بهم قد احتملوه وهم يحسبونها فيه ، حلفتها . وتهيب الجند الذين يرحلون لها أن يادوها أو يتوثقوا من وجودها .

فأقامت حيث هي ، وظنت أنهم سيرجعون إليها لا محالة إذا أحسوا غيبتها .

وكان صفوان بن المعطل على سائمة الجيش ينخلف عنه لينقط ما يستقط من المتاع وربما كان النسي عليه السلام يعهد إليه في ذلك ، لأنه كان ثقیل النوم فلا يستيقظ حتى يأخذ الحش في الصبر ؛ وقد شكته أميئة إلى النبي لأنه لم ولا يصلي الصبح قبل طلوع الشمس .

فكان عليه السلام يعلم ذلك منه ويقول له إذا استسقطت فصل ١

وقد يحسن هنا أن نوجه شكوي امرأته إلى بعض معانيها . كأنها أدانت بثقل النوم كناية عن أمر آخر لا تفصح عنه إذ قيل عن صفوان هذا إنه كان «حسورا» لا يأتي النساء ، وشجع وهو يقسم بعد حديث الإفك أنه ما كشف عن كتف امرأة قط .

ولما نهض صفوان لاتباع الجيش في مساقته رأى سوادا على البعد ثم عرف السيدة عائشة ، فجعل يسترجع ويعيد استرجاعه : إنا لله وإنا إليه راجعون : يا لله وت إليه راجعون . . كأنه يتبها بالاسترجاع ، لأنه يتهيب التحدث إليها . ثم قرب البعير وقل : أمه . قومي فاركس ، وأخذ برهام المعير يقوده حتى أدرت الجيش في بحر الظهيرة

حدث هذا وابن سلول لم يفرغ من دسبسته الأولى التي أزعج لجيش ، وأوقعت الاضطراب في حركاته ومو عيده ورجله ومييه فسحب له فرصة للقل والقال لا تصبغها الرحن الذي عز عليه أن تنقضي مشاجرة بين أجورين على الماء دون أن يشير فيها تلك اللثارة الهوجاء ، وراح يقول : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وأطلق لسانه في حديث الإفك على الطريق ، وبعد العودة إلى المدينة ، عسى أن يوقع بين النسي وأقرب الأصدقاء إليه أبي بكر الصديق ، أو يفلح في تشكيك المسلمين في كرامة نبيهم ، أو يقيم بين قومه الخوارج وسائر المسلمين شعنا يقيمون فيه عصبية له وأنة من هواه ، فيستقص أمر الإسلام من أوس وخرج وأنصار ومهاجرين .

قال السيدة عائشة في بعض ما روى عنها : « وقدمننا المدينة فنتكيت شهرا والناس يميضون في قول أصحاب الإفك ، ووصل

الخبر إلى النبي وإلى أبيه ولا أشعر بشيء من ذلك ، وكان
يربني أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى
منه حين أشتكى . إنما يدخل عليّ فيسلم وعندى أمي
تمرصني . ثم يقول : كيف نيكم ؟ ثم ينصرف . فذاك الذي
يربني . حتى خرجت بعد ما نهيت ، فخرجت معي أم مسطح
وهي بنت خالة أمي بكر . . وعثرني أم مسطح في مرطها فقلت .
تعس مسطح . . قلت لها : بشي ما قلت : أنسبين رجلا شهد
يدرا . . قلت : يا هتاه أولكم تسمعي ما قال ؟ قلت : وما قال ؟
فأخبرتني بحديث أهل الإفك . فأنذرت مرضيا على مرضي ،
ورجعت إلى بيتي ، فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي
دمع ، ولا أكتحل بنوم . ثم دخل رسول الله وقال بعد أن سلم :
كيف نيكم ، فأسأله أن أتى بسب أبي ، وأن أريد أن أشبه
أخبر من قبلهما فأدلى رسول الله ﷺ ، فحجنت أبي
ودحلت السر فوجدت أم رومان في السهل وأبا بكر فوق نقرا .
فقلت أمي : ما جاء بك ؟ قلت لأمي : يغفر الله لك . تحدثت
الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئا ؟ قالت : يا
بنو هونى علك . ثم الله لقلما كانت امرأة فط وحيثة عند رجل
بحسبها وله ضرار إلا أكثرن عليها . . فامسعت وبكيت ، فسمع
أبو بكر صوتي فنزل فقال لأمي : ما شأنها ؟ فقلت : بلغها الذي
ذكر من شأنها ، فقامت عندها . وبكيت تلك الليلة والليلة التي
بعدها ، وأبواي عدى يظنان أن البكاء فائق كبدي . فبينما نحن
على ذلك دخل عليا رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد وقال أما
بعد يا عائشة فإنه قد بلغني علك كذا وكذا . فإن كس بريئة

فسررك الله ، وإن كنت ألممت بذلك قامت عذري الله وثوبى ، فإن
العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه . فلما
قصي رسول الله ﷺ مقتلته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة ،
وبلت لأبي . أحب رسول الله أقل : والله لا أدري ما أقول . فقلت
لأمي أحبيي فقلت : كلك والله ما أدري . ثم قلت : لقد
سمعتكم هذا للحديث حتى استقر في قلوبكم ، فلئن قلب لكم إنني
بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني . ولئن اعترفت لكم بأمر والله
يعلم أني بريئة لتصديقني فوالله لا أحللي ولكم مثلا لا قول
أبي يوسف عليه السلام : فصر جمل والله المستعان . ثم تحركت
فاضطجعت على فراشي ، وما كنت أظن أن الله يزل في شأنني
وحياتي . ركت أرجوان يرى رسول الله ﷺ رؤيا من النوم
يربني الله بها ، وعندك قال أبو بكر رضي الله عنه ما أعلم أهل بيت
من العرب دحس عليهم ما دخل عليّ . والله ما قيل لك هذا في
الجاهلية حيث لا يعد الله ، يقال لنا في الإسلام . . فأخذ رسول
الله ما كان يأخذه عند نزول الوحي ، فسجني ووضعت له وسادة من
أدم تحت رأسه ، فلما مرى عنه إذا هو بضحك . وانه لينحدر منه
العرق مثل الجمان ، فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم ، وكان
أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ! أما إن الله قد برأك . فقلت أمي :
فومي إليه . قلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا لله . وتناول
رسول الله فرعى فدفعته يده فأخذ أبو بكر النعل يعلوس بها
دمعه رسول الله وهو يضحك ويقسم عليه ألا يفعل . . .

إلا أن السبي عليه السلام قصي فترة من الوقت نزل ذلك وهو في
فاق شديد لا يدري ماذا يفعل . واستشار الصحابة فقال له عمر

بأسلوبه الحاسم . من زوجها لك يا رسول الله ؟ نال : الله تعالى ! قال : فمتظن أن الله حَسَنٌ عليك فيها ؟ سبحانه ! هذا بهتان عظيم . ودع علياً وأسامه بن زيد ليسنا أمرهم في هراي أهل . فقال أسامة بن زيد : أهلت يا رسول الله ، ولا نعلم إلا حيرا ، وقال علي : يا رسول الله لم يُضيق لله عليك والنساء سواها كثير . وإن سألت الحارية - يعنى بربوة تصدنتك . فدعا بها وسألها أى ربوة ! هل رأيت من شئ يريبك ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً أغمضه أكبر من أنها حارية حديثة السن تنام عن عجبها فتأني الناخن فتأكله . وسألت ربيب بنت جحش وهى أحب نسائه إليه بعد عائشة فقالت : أحمى سمعى وبصرى ما علمت إلا خيراً . والله ما أكلها وإني لم أجرتها ، وما كنت أقول إلا الحق .

وفى حلال ذلك كان عليه السلام يأتى يحدث الإثك ، فخطب المسلمين . فقال : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذونى من أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ؟ . . . ولقد ركبوا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، ولا يلحل بيتاً من بيوتى إلا وأنا حاصر ، ولا غبت فى سفر إلا عاب معى يقولون فيه غير الحق . فقال أسيد بن حضير : يا رسول الله . إنه يكونوا من الأوس يكتيكهم ، وإن يكونوا من إخوان من الحرج نعمنا أمرك . والله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم فوئب سعد بن عانة وصاح به : كذبت لعمر الله ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قُبِ هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . وهم به أسيد بن حضير ، وتساور الناس حتى كادت تكون فتنة ، لولا أن أدركهم النبى بحسن ترفيقه .

هذه خلاصة حديث لإيالك بحذافيره كما بقى لنا فى مصدره التى يعتمد عليها اليوم كل باحث فى موضوع هذا الحديث ، كأننا ما كان ظنه بالإسلام أو بالنبى وأهله .

وفى وسع القارئ أن يعرف قيمة هذه الوثيقة من نظرة واحدة ، فهى على التحقيق وثيقة لا قيمة لها عند منصف يلتمس من ورائها قرية الكبد والوقبعة التى نمتت فسد ، إذ هى تربة وبيئة تنضج يستعائم الخصومة الدينية والسياسية رمسائر الحبث والكذب والمفاق . وخيق به أن يبعث لشك فى كل حدث ينبت بين طياتها ، ولو رعموا ل من الأسايد والشبهات أضعاف ما زعموا لهذه الوثيقة الواهية . وليس لها من سند ولا شبهة إلا أن الميلة عائشة تأخرت فى الطريق هنيهة حين تحرك العسكر عسى حين فجأة ، وقد كانت الرحلة كلها كثيرة المماجات فى مواعيد السزل والرحيل .

تلك شبهة لا تكفى للشك فى امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد فى حضرة نبى الإسلام ، إذ لو كانت كل امرأة تتأخر فى الطريق تزجج بالتهمة فى دينها وعرضها لكانت التهم فى الأعراس أمون شئ يحظر على بال .

بل لو تأخرت كل امرأة فى الركب غير السيدة عائشة لجاز أن تلحق بها شبهة من هذا التأخير ، لأن الركب لم يكن فيه امرأة غيرها ، أيها بها الموكلون بهودجها أن ينادوها بيتاً كسوا من وجودها ، ولم تكن فيه امرأة أخرى تهاب الرقبة من جيش المسلمين كما تهابها ، وهى زجج النبى وست الصديق ، وقد كان أبوها يحمل راية المهاجرين فى تلك الغزوة بعينها .

وعلى الذى يقبل وشاىا كتلك الوشاية الواهمة أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة ٦ موجب لتصديقها ، لأنها تفتقر إلى كل دليل والأدلة على ما ياقضها كثير :

عليه أن يصدق أن صفوان بن المعطل كان رجلاً لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الإسلام .

وأن يصدق أن السيدة عائشة كانت - وهى زوج النبي - لا تؤمن به ولا تعمل بدينه

ولا دليل على هذا ولا ذلك .

بل الأدلة على إيمان صفوان وإيمان عائشة تحرى فى كل ساق وردت لهما سيرة فيه .

فصفوان كان مسلماً خيواً ، وكانت غيرته فى حادثة الماء التى تصاول فيها المهاجرين وتباع بن مسعود هى التى عرضته لهجاء حسبان بن ثابت ، ولعلها هى التى بعضته إلى ابن مسعود ، فتصادى من أجل ذلك فى اتهامه ، وقد حضر الغزوات ، ومات شهيداً ولم يذكر قط بسوء .

والسيدة عائشة آمنت بكل كلمة قالها النسي وحفظتها حفظ من يتبرك بها ولا يعقل عنها . ومن إيمانها يصدق هذه الكلمات أنها اشتكت فى خصومات أمية تشر الحفائض ، وتهون عليها أن تحارب خصومها بأحلاق الأحاديث التى سزى بهم وتبطل دعواهم لو كانت ترقاب بنى صدق لأحاديث كلها ولكنها لم تنج لنفسها قط شيئاً من ذلك ، ولم تذكر حديثاً قط على غير وجهه الذى تؤيده الروايات الأخرى . وقد كنت فى طريقهم إلى وقعة

الجمل بعد وفاة النبي بزهاء ثلاثين سنة ، فنبحنها كلاب على مصربة من ماء فى بعض الطريق ، فسألت أى ماء هذا ؟ قال اللئلي : هو ماء الحوآب . فأجفت إجمالة مروعة ، وصاحت بحيث يسمعها أدلاً لها : **إنا لله وإنا إليه راجعون !** وخسرت عضد بعيرها فأناخت ، وأنت أن تتحول عز مكنها . فلما منلت فى ذلك قالت : نى سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه : ليت شعري أتمكن نبحها كلاب الحوآب ؟ ردتونى . ورتونى . والله أنا صاحبة ماء الحوآب . وما زال الركب مهبماً فى ذلك المكان يوماً وليلة وهى مصرة على الرجعة ، وهم يزعمون بها أن اللئلي قد أخطأ ، وأنه المكان غير المكان الذى تخشاه ، ولم يرزل عبد الله بن الربير يقننها ويهدئ من روعها ، وهو ابن أختها وأحب الناس إليها ، وبه تكن فى أشهر الروايات ، وهى تأبى المسير إلا أن تعود إلى مكة . حتى أرسلوا إليها من يصيح فى الركب : **النجاه . النجاه .** قد أدرككم على بن أبى طالب . فأدب لهم فى المسير بها ، وقد أحافتها المبيعة وحامرها الشك فى كلام اللئلي

لذا وليس معها فى الركب من سامع ذلك الحديث غيرها ، فكيف تعمر بالنسي زوجة تصدعه هذا الصديق ، ولا تأمن أب ينكشف سرها بوحي من الله ؟ ومن هى تلك الزوجة بعد هذا ؟ هى بنت الصديق الذى لم يوصم بهته بوصيمة فى الجاهلية كما قال حتى يوصم بهذه الوصمة الكبرى فى الإسلام ومع بنى الإسلام

إن أقوى لأدلة لا يحسم الشك هنا فصلاً عن تلك الوشاية الواهمة . وسقى على من يقننها أن يسأل نفسه بعد هذا : كيف نشأ علاقة صفوان المرعومة ؟ أفى تلك الليلة بعينها ؟ فكيف اجترأ

الحق وقبضي بين سمري وسوري وداني وألم أظلم جداً . فبي
الربيع الأعلى من الحياة : حيرت قاصرات ، والذى هيأت
قد صبت أنظر في وجهه بعداً بغيره قد يفسد وهو يقول : يا
ذات : ... وحملت رسول الله ﷺ في حجري :
فقد ، زاد في امرأة وآلية بني النساء وتغرب وحبها .
التجمل ووقار الحزن في المصاحبات . إذا هي تسي كل ذلك ساعة
المؤمنين التي لبثت السنين بعد السنين طغى ما لقنها من مداد
الدور الذي لا يتكرر ولا يهونه سابقه وذاع مثله : أيها أم
وسورها : ليست لهن تلك الساعة لها في بنفي ما هذا
وما ظاهرها الخطأ أن تعاكس غيرها وهو يموت بين سمري
ولما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيضاً روحاً ،
معاشراً ولم ير جون الصبر ويعدون عن جوارحهم يدنو الجوف ،
استأنده أبو بكر في الخروج إلى بيته بالصبح ، ونزوى المسلمون
الأواء ، ولكنه كان قد مضى بعض الصحابة حتى
وقد علم كتمن من الناس عند الاستعداد المفروض به أنه مر من
بالمدن الذي كان قائماً فيه .

وقد توفي النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، ودفن
وهي في نحو السنتين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة .

عاشت عيشة عائشة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأربعين سنة ، ووافيت

مقدمه

[illegible]

. حاصل من هذا الأيمان .
 وأما قوله : لا تعلم يؤمنون بالمسيح وكان علمهم أن يعصمهم
 الحور الحاضرون : لا تعلم لا يؤمنون بشي إلا بالإسلام ، بل هؤلاء أعداء
 وسوء فيه ، متافقوا المذنبية ومن يصح صحتها من المؤمنين حتى في
 كل أولئك منصف لا يقبله إلا من يقدر بربانية أو يقدر وحاشية ،
 يحيى الطاهرية ؟
 المجرية في الطريق وعن الكاوية التي تكلف للجنس كله في
 الحور الحاضرون ، وأما ما أورد من
 أما إن كنت العلامة المزعومة قبل ذلك فكيف حلتها من
 المذنبية فيه على صفوان .

[illegible]

. كثير من هؤلاء الذين لا يقررون
 بدعوة إلى التوراة له إضحية أو ما خطا . حتى كانت حلاله عذمان
 مكانها في عهد النبي قد تغير . أو كان أمرا من أمور السياسة العامة
 التي عليه السلام فيها جعلت حلالا في بكر وعمر وهي لا تشترط بأن
 ومن أهم الأخطاء التي ينبغي أن لا يخطئ في حياة السيرة عامة هذه
 . تلك العمل الذي كان النبي عليه السلام يسرها بمساعيها فيه .
 إلى الصلاة والتسليم في جوار الكريم . أو يعمل في مهمة البيت
 وكانت إذا فرغت من تلقى إلا حادثات وخواتم الساعات تأري
 في من ياتيه المستعيرين ، وبها له من دعاء مصعب إلى الاستماع
 مشايه الزوار من أبنائها وبناها ، بدورها يا أيها ! ومنهم من في
 أي المربي وما حقه من السنن والآداب ، وحتى كان يفتيها
 مراجع الدين كانت في المرجع المرجع الأول فيها حلقا حلقا من
 بعد وفاة النبي عليه السلام ، وتوفي المسلمون على تصحيح
 ورفعة مكانها ، لا أن يفتي المرجع . فما هو إلا أن هناك ثورة الفتنة
 . أن يردوا الدنيا وهي تترك السنن . لأنها في حلقها
 الطوائف من الذين قاروا روحها العظيم ، وهي تجاوز المشركين ، إلى
 السنن حياة السيرة عارضة في حلال تلك تلك السنن
 . سورة الأجران على سبيل التبرع .
 تلك الذكري وفيه تلك الأوقات ، فبذلك من الحكم بتحريره في
 تحرير الفكر في حياة روحية أخرى ، كانه خاطره حرمه دراسة
 الذكري في نفسها أن أحدا لم يخطئ له خاطره من السيرة عارضة
 ذكره . فمستبين سنة ، ومبنا لمن يمشي الناس خلال تلك

السلام ، فقامت في مصعب زهاء عشر سنين ، وعاشت في
 وكان في أول العقد الثالث على أكثر تقدير عند وفاته عليه
 . منهم من كان في الحياة .
 وليس من الناس من كان في الحياة ، وهي تزو أرواح الأهل والأحباب
 ذلك راحة الأهل . فلما دوى منها عمر حلقها بغيرها بغيرها
 الأهل . ودون أيها إلى جوار بعد سنوات ، فكانت تزودها
 فيها قد فرقت من غير مسند جناتها . فقد كانت تزود راحة
 وفجأة سكنتها في الحجرة المحروقة لقوة ، وهي لا تحسب
 للمرة أو الصح أو لراحة لينة ، ولما كانت تزود .
 وما رحت منذ تلك اللحظة تلامس الحمة الحادة ولا يمارونها إلا
 حتى سمعت صوت المسامح من صوت الليل .
 . كانت عاتقة وقاطعة رضي الله عنها : وما علمنا بذلك .
 . الحضان الكريم دمه بعد تقاطع المودع من مروج من الليل .
 وحذر الواحد على طريقة أهل المدينة ، وتوفي القاصدون على
 . فساد صاحب أبي طلحة به ، ولم يعد صاحب أبي حنيفة .
 . وأهلها به رجح أهل مكة ، وأهل غير هرج أهل المدينة
 . جاني بدو أحدها إلى حنيفة من الحرج ، وبدوا الآخر إلى
 القبر وأهل المدينة يتنصرون . ليمت المسامح من عند الطلاب
 دقة على ما تعود في طلبة أهل مكة ، وكان أهل مكة يتنصرون فاج
 كان قد بلغ من تأسفهم في حبه أن يولي كل فريق منهم مراسم
 لأن المسلمين ، لأن المسلمين ، ولم تشهد دقة عليه السلام بعد وفاته بتوطين
 رأسه على رسالة وقفت القدم مع السلف وأصوب وخفي .
 سبني وحداثتي مني أنه لم يمشي وهو في حضرة ، ولم يمشي

ففى عهد أبى بكر كانت أمور السياسة العامة تجري على أحكام الدين ، وترك من أوصيائه إلى سائر ركنين ، وكان الخليفة أباها وهو أول من يدعوها بأمر المؤمنين .

وفى عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن ، ولكنها فى كلتا الحالتين لا تشعب ولا تزدد بلصداع ، وكان عمر أئيب حليفة عمره الإسلام ، وأحب حيفة إلى عائشة رضى الله عنها . سرت صداقة لأبوين أبى بكر وعمر إلى نيهما ، فكانت عائشة وحفصة أصق صديقتين تتفقان وتتكاثران كما وقع الخصام فى بيت النبى عليه السلام ، وحفظت له أجمل الشكر لموقعه من حديث لافك حين شاوره النبى فقال له : إن الله هو الذى زوجكها ، وأنه سبحانه وتعالى لم يلبس بها عيك . وتم هذا الشكر حين دلى اخلاصة فرعى لها السكنة الأولى بين المسلمين ، وخصن بيت النبى بالحصة العليا من الحفاوة والعطاء .

فمضى العهدان - عهد أبى بكر وعمر - وليس فى الحية الخاصة ولا فى الحية العامة ما يشعرها بتعب أو يتزعج بها إلى نوارع السياسة ، وما تعرض منها أو جرح إلى الحريب والتكيب . ثم تغيرت الأمور فى عهد عثمان .

ولولا هذا التغيير لما عرت السيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبى ، وهو الموقف الذى تحوكت بها الأحوال إليه بعد اجتتاب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على خبر سابقة له فى صيرتها الأولى .

فى السياسة العامة

قلنا فى فصل سابق إن البدة عائشة لم تغض حياتها فارغة خلال اثنين الضوال التى انقضت بعد وفاة النبى عليه السلام . لأنها فى حدة نفسها ورنعة مكانها لا تقب الفراع .

وأما حدة نفسها فمن السهل بعد إلمامة يسيرة بمزاجها وتكوينه الذى يشبه تكوين أبيه أن نعرف كيف يعذر الفراع على هذه انسلقة الحبة التى نشط بها المرج العصبى ولم يعذر بها الترهل والإعياء .

وأما رنعة مكانها فبى أخرى أن تشعلها عن المراع مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه بها طوال حياتها ، ولم تتعد فقط أن تكون غفلاً فى بيتها ، وهى أرفع بيته بين قومها .

نشأت حزية فى ألها وذويها ، عريوة فى بيت أبيها ، عزيزة فى أعر البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولا يكون فراعها بمثابة الإعضاء عنها

هذه حقيقة لروايتها لها ولا الأسر كما ينبغي فى حينها لتسلمت السياسة العامة فى ذلك الحين من جمر أثر الخطأ الذى وقعت فيه

ولا بدع في تقرير تلك حقيقة ولا في تعظيم خطرها والتنبه إلى تبعاتها .

فما من دولة قط إلا قد اتحللت لها أصولاً مرعية في سياسته أقطابها ومراسم كبرائها وكبير ته توافق ما لهم أو لهم من الشأن في الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهم من الآثار في السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص ، وهي أصوب لم يعقل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب في توجيه الأمور

وقد كانت «أصول» السياسة العليا في معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسلبقتها ، أن تطل بالمكان الذي يستمد فيه من عملها وعلمها وأن تعرب بها مهمتها الكبرى في تقرير السنة النبوية ، أو سبب الدستور الإسلامي كما يؤخذ من أحاديث النبي ومأثوراته وعاداته ، في معشقة وعاداته ، وكان هذا وحده عملاً حليفاً أن يشعل أمام السيدة عائشة على أحسن الوجوه المصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية

كان هذا واجباً لها وحباً لحق ووجوب المصلحة ووجوب السياسة . وكان هذا الواجب «أصولاً مرعية» من أصول السياسة العليا أنما أتى بكر وعمر سوء قصداً إليه أو ذمها فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور ..

ولكنه حولف أو عدل عنه بعد الحليفتين الأولىين حولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ، وبعضها إلى طوائف الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على حيدر رسماً أو على ما تعطلت بها إليه دافع الأحرار .

حاء الخطأ لأول في هذه السياسة من الشائعين دلاً في حكمرة عثمان ، وكان خطأ عجيبياً حقاً ، لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ، ولا تدعو إليه ضروره من ضرورات الدولة ، ويعنى به نقص العطاء الذي كان مقدوراً للسيدة عائشة في عهد الفاروق ، أعيد من لاحظ العدب في تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائقاً عندها وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة في حرانة الدولة ، ولكنه لا سوغ ولا تستريح إليه النفس ولا مودل تتدفق على حرانة الدولة بالآلوف التي يحار فيها الإحصاء ، وعنائهم أفريقية وحدها تلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لثنت الخليفة وروحها مروان بن الحكم ، وغير تلك من القطع والأعطية التي يُحصن بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب .

إذ العصب من هذا ليس يكون عصب الحريص على مال . ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يميزه في برف أو يحزنه للمكاثرة والادخار . فما سمع عنها قط أنها أنفقت المال في غير الكفاف من الرق والإحسان إلى المعوزين وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار

ولقد كانت تنكر التردد من الداء على الصحابة الأحباء وإن كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن بن عوف - ومروءة من أمثلة عدة - وافر الشراء على عهد النبي ، عظيم السخاء في خدمة الدين ودخلت له غير إلى المدينة فيها سبع مائة حير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجبت لها المدينة ،

وسمعت رجتها في بيت عائشة ، فاجابه من لومها إلا أنه ذهب إليها يشهدا أن العير بأحملها وأحلاسها وأقتاب في سيل الله !

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب الحريص على مال وانطاع في ادحار ، ولكنه كان غضباً عادلاً من غضاصة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تسرح إليها النفس بتعليل مقبول .

وشاع النقد والسطح من ولادة عثمان وحواشيه ، وكثرة القيل والقال في محالفتهم للدين وتوسيعهم في اقتناء الدور والحطام .

ومثل من الأمثلة العدة في هذا الساب بولية الوليد بن عقبة أخى عثمان لأمه خلفاً لعمه بن أبي وقاص على الكوفة وهو من أعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين .

وكان الوليد منهمكاً بالحمر ، وشاع في المدينة أنه أم النار يوماً في صلاة الصبح وهو مسكران . فلما فرغ التفت إليهم وقال : هل أزيدكم ؟ فأتى أحد في نسي نشاطاً !

ولم يكن عجباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمن لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين ، وإنما لجأوا إليها بعد أن قدموا على الخليفة فبهرت بهم حاشيته وبرأوا الوليد عند ما اتهمه به أهل مصر . فقال لهم : أكلت غضب رجل منكم على أميره وماله بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبي وعائشة فيه .

ثم أصبح عثمان فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض العظة ، فقال متعجباً : ما يجد رأي أهل العراق ومسانهم ملجأ

إلا بيت عائشة ؟ سمعته . فقبل إنها رفعت نعل رسول الله ﷺ وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ .. وتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد . فمن قال : أحسنت ، ومن فاق ما للنساء وهذا ؟ حني تحاصصوا وتصاروا بالعدل ، ودخل رمط من أصحاب رسول الله على عثمان وفائسوه الله أن يعزل أخاه .

وم يكن من شأن هذه السلسلة من حنفيه عثمان أن تكف السدة عائشة عن تعد الرلاة وفرد الكفاة . بل قربت هذه الألفة بينها وبين اللاحقين إليها . فلما شكوا الناس من وإلى عثمان - في مصر عبد الله بن أبي سرح - واتهموه في رجل ممن شكوه إلى الخليفة رفعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت إلى الخليفة تنذره باليه وتقول به : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذه قتل منهم رجلاً فأصفهم من عاملك .

وجلس وفود مصر من ملأون المصلين بالمسجد في أوقات الصلاة ، ويسطون لهم ظلامتهم وشكايتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، تلحف كبار الصحابة على الخليفة في إنصافهم . وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها في توحيه الشاكين إلى طلب السريد من حماية أم المؤمنين ، فاحتروا محمد بن أبي بكر - أحبا - ليخلف عبد الله بن أبي سرح حين خيرهم الخليفة فيمن يؤثرونه لدلاية بعده . ووقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تعلم جلبته حتى الآن ، وإنما الرأي الراجح أنه من تدبير مروان من الحكم على غير علم من عثمان ونصحااته المخلصين .

ذلك أد الورد القافلة إلى مصرها عشوت في طريقها بغلام يحمل كتاباً في أنبوية من رصاص وفيه إنه : إذا أتاك محمد بن

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكنة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يؤجى من الخير في شفاعتها إلا بعد موت كل فرسة وخبيع كل أمر واستقصاء كل تدبير .

فلما حوضر عثمان وحيل بينه وبين الراد والماء ذهبت أم حبيبه إلى داره ، وهي رميلة لمسيحة عائشة من أمهات المؤمنين - فاعترض الثوار بعلتها وكانت معها إدارة ماء تخفيها . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : إن إصايا بنى أمية عند هذا الرجل ، فأجبت أن أسأله عنها لثلاث تلك أموال الأيتام والأرامل ! وكانت أم حبة أموية من آل أبي سفيان ، فاحترأ الثوار عليها وقالوا : كادبة ؟ وقطعو حبل الثغلة بالسيف ، فسرت وكانت تستطع عنها ، فتلقيها كرام الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المعام بالمدينة ، وهي على هذه الحال من المنة لصاعية ، فتجهزت للحج واستصاحت أخاها محمداً فابى وتخلف بالمدينة

عند ذلك لحاً مرواد بن الحكم - وهو رمر البلاء - إلى حوار السيدة عائشة التي كان يعري عثمان بها لاجتماع الناس سبها . فقال لها : يا أم المؤمنين ! لو أقمت كان أجدر أن يرقبوا هذا الرجل . فعلت . أتريد أن يصنعوا بي كذا صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجدر من يصنع ؟ لا والله ولا أعبر ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفي رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الحود بالمال في تلك المأرق المينوس مه ، فذهب إلى السيدة عائشة يسبقها ليصبح الأمر فقال : قد فرغت من جهوى وأما خارجة للحج . قال عندئذ

فيدفع لك لكن درهم أنفقته درهمين ؛ فلم تلت عائشة نفسها على ما جاء في هذه الرواية أن تقول : لعلك ترى أننى في شئ من صاحبك ! أما والله لوددت أنى أطبق حمله فأطرحه في البحر ! .

وليس أكثر ولا أعرب من الأحاديث التي نسبت إلى عائشة في حلال هذه المنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأفساها . أن بعضهم سمعها تقول : لا اقتلوا نعلنا قد كمر ، وأنها كانت سأل من تلقاها أن يحذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان

فلم الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنتقم من حكومة عثمان وتسمى لها الرول

وبجز الشك بعد ذلك في كثير من قصص الأحاديث التي نسبت إليها تصدد هذه الفتنة . لأن بنى أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبي بكر عند دخولهم مصر أشيع غنيل فقلوه طمأن ، ووضعوا في جوف حمار مس ، ثم شؤوه . وهذا بعد أن حروه من رحله في أسواق مصر ، وأشهدوا على مثلته لسفلة والصبيان ثم أرسلوا يمينه الذي قل فيه وهو يدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة روجة عثمان ورقصت به ، وشوت تحت معويه بن حديج خروفاً وأعدته إلى السدة عائشة في ذلك العيد - وهي توصي الرسول أن يقول لها : فكنا كان شئ أخيك ، فما أكلت السيدة عائشة بعدها سوياً قط ، وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

فلما تسامع المسلمون بأبناء هذه المنة الشعء عصوا للسيدة عائشة أن يشعب بها ولاية الدولة الجديدة هذه الشمة ، وحاف الأمويون من جرائرهما ، وندم عقلاؤهم على ما كان من سفاهتهم ،

واحتاجوا إلى المبالغة في تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بالكسبة والسنة أفعالهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل فتمزج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمنسوب ، ولا يسهل التنازع من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق .

وعلى ما يتأكد من زيادة حذر من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدر متناقضان ، وهما مصدر أصحاب معاوية ، ومصدر لشيعه أصحاب علي يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وردهم في المثلة بأخيها وخليف عيها . ويريد الآخرون أن يبطئوا موقعها مطالبة على يد عثمان ، وأن يثبتوا إساءة علي من دم الخليفة لقتل ومشاركة عائشة في هجمة قتليه فضلا عن مصلحة القائلين أنفسهم في التعليل بهذا الذي يعيبهم من لوم كثير

• • •

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى لا اضطرار أرب منها إلى الاختيار .

أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة علي من مبدئها بالسياسة والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يسوموا بجاهها وبشركها معهم في حصوماتها ، وكان أكثرهم ربا لو أنهم جئوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يمتصم بها الفريقان ، ويستوى في جبرتها العسكريون ، فتركوا لها مندوحة للمراجعة يوم دعاها الدعاء بعد تفاقم الفتنة إلى السعي بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال طث الفتى السعدى الذى يصدى بزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوفيت رسول الله بيمينك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بئسالكما .

نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بنى سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذى يعنى عن كل جواب . فما من أحد يلومهما لى بواقعة السيد عائشة في الرأي أو توافقهما فيه ، وبما الملام الذى لا محيص عنه أن يتجاهزا الساء بوابه إلى الخروج بها من حومة قتلى . وهما لم يخرجوا إليها بالمحارم والأرواح .

كانت في طريقها إلى مكة يوم نفيت ابن عباس مؤذنا من قبل عثمان لتلوا على الحجاج كتابه ، ويطلب البصيرة بينهم وبين الشائرين عليه ، ففترحت عليه أن يحتل الناس عن عثمان ، وأن يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة بن عبيد الله . لأنه اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فليتل الخلافة بغير بسيرة ابن عمه أبي بكر رضى الله عنه .

قال له ابن عباس : يا أمه الله حدث - لى اعتراض عثمان - ما فرغ الناس إلا قبي صاحب . . . قالت : ليه عت . ست تريد مكابرتك ولا عاقلتك .

وألمت نفسها في مكة بين العثمانية ، لأموية يوم نزل بها قبيل مقتل عثمان . فعرض بها أن ترحل إلى المدينة لتدرك الأمر قبل فواته ، ولكنها سمعت من الطريق بيعة على فقلت فيما رواه عبيد بن بنى سلعة وهو من حوولتها . ليه هذه تطبقت على هذه إن تم لأوصا حيك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت

بركبها ردوني ا ردوني وجعلت تتوعد في الطريق : أن تطالب
يدم عثمان : فقال لها عبيد من أبي سلمة : ولهم ؟ والله إن أول
من أزال حرقه لأنت ا قالت : إني استأبوه ثم قتلوه . وقد
قلت وقالوا . وقولي الأخير خير من قولي الأول .

ومالئت في مكة قليلاً حتى تجمع فيها كل نادم على علي بن
أبي طالب من أعدائه ومنقسمه ، فنقض أيامها بمكة بين
العثمانية والأموية والولاء الذين أحسوا بوزال الدولة والشرية ،
الذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد ، وبحق بهم طلحة
والزبير ، وكلاهما طامح لي الخلافة ، بائس من الأنصار في
المدينة . فانفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفق بينهم فيما
عداها . وهي المطالبة بدم عثمان ، لأن العتالية به تعيهم عن
القدح في الخليفة الجديد ، ولبس الاتفد على النسخ ليه
بمستطاع ، لذلك انقضت الصيحة بدم عثمان .

وفي هذه البيئة غلبت على السيدة عاتكة بنة الحزوح إلى
البصرة بتلك الدعوة التي اتفقوا عليها ، وأكبر العن أنها كانت
وشيقة أن تعجم عن الخروج إليها لولا غلبة البيعة وجمع
الأصوات من حولها على ذاء واحد . وإني ما عتبت في الطريق
أن صدمت أول صدمة حتى هبت بالخروج . ثم أصرت عليه لولا
احتياهم في إتياعها مختلف الحبل .

عبروا بقاء الحوالب فتبعهم كلابه . ودعوا أي ماء هذا ؟ قال
الليل هذا ماء الحوالب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : إنا لله
وإنا إليه راجعون إني سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه

ليست شعري أينكن تسحب كلاب الحوالب ؟ ثم صرمت عصف
بعبيرها بأرجحه وهي تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوالب
طررقاً . ردوني . وثامت يوماً وليله لا تريم مكانها ،
حتى جاءوا لها يتحصين رجلاً من الأعراب وشوهم فشهدوا أنهم
جاءوا الماء ، وقلوا لها : مهلاً يرحمك الله فقد جرناء . ثم صاح
عبد الله بن الزبير : النجاء النجاء فقد أدرككم على بن أبي طالب
فأنت لهم في المسير بعد امتناع شديد .

ونعتقد أن وفقتها عند ماء الحوالب لم تكن آخره التردد من جانبها
في أمر القتل . فبنا في الواقع لم نقرأ بين أخبر وقعة الجسر
المتشعبة حبراً واحداً يسم على عومة قتال ميسة لعرض مرسوم .
ويؤخذ من كلامه زبي الأسود الدؤلي حين أشخصه إليها عامس
على بالبصرة ، أنها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين
لقتالها فقد سأله : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي ؟
وكان أبو الأسود رجلاً صاحب المراس في نصرة عليّ فأجابها : والله
لنقاتل قتلاً أمونه الشديد ، وكان مما قاله لها قبل ذلك : سر
على النساء قتال ، ولا لهن الصلب بالسوء ، وإن عباً لأولي عثمان
منك وأمر رجلاً . فإني أباها عيد مناف .

ولم تزل البصرة على هذا التردد كسب أشنك أتباعها وأتبع
عثمان بن حنيف وإلى عني عليها . فتعاجزوا عن الحرب غير مرة
في المبريد وفي حذر الرق ، وودي أصحاب عاتكة بالكف من
القتل بعد أن تورط فيه الفريق دار الرق نهاراً كاملاً من الصباح
إلى الغروب كثر فيه القتلى والجرحى من الحشيشين .

ثم أنفذ علي بن أبي طالب رسوله القعقاع بن عمر إلى طلحة
والزبير وعائشة ، فبدأ بعائشة وسألها أي أمه ! ما أشخصك ؟
وما أقدمك هذه الليلة ؟ قالت : أي بني ! الإصلاح بين الناس
قد : فابعثني إلى طلحة والزبير حتى تسمى كلامي وكلامهما
فبعثت إليهما ، فجاءا فقالا لهما : إني سألت أم المؤمنين ما
أقدمها فقالت للإصلاح بين الناس فما تقولان أنتما ؟ أمت معا
أم محادقان ؟ قد لا : فابعثني : قال : فأحيرني ما وجه هذا
الإصلاح ؟ ثم إنه ش عرفه لصلحن ، ولئن أنكراه لا يصلح .
هـ : فبعثت عائشة وحكم المرأة قال : لقد فتن بالبصرة ستائة
مئة فمضت بهم ستة آلاف واعتزلوكم ورحلوا من بين أيديكم ،
وخصم حذوكم . هـ : فمضت ستة آلاف . فلو تركتموهم كنتم
تدركون ثم تقولون : لو قاتلتهموهم والذين اعتزلوكم ما دلو
عسكم ، فإني حذرهم أعظم مما يراكم يكرهون ، وإن أتمت معكم
مصر وزبيدة من هذه الليلة اجتمعوا على حرككم وحد لا لكم بصره
لهؤلاء . فسألت عائشة : ماذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر
دواء منسكب . فإن أنتم لم تسمون بعلامة خير وتباشروا رحمة
وذكى بشار . وإن أنتم أنيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت
علامة شر وذهب هذا المال فأثرو العاقبة ترزقوها ، وكونوا
مصابيح الحير كما كنتم ، ولا تعرضوا للقبلاء فتعرضوا له ،
فبصرعنا وإياكم .

قالوا : قد أصيب وأحسب ، فارجع فإن قدم على وهو على
مثل صبح ؟ أمر ثم أقر علي وسأله ، وأشرف اليوم على
الصلح . ولا أحد هذا المسمى بسفهاء من المسكرين ،

فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمع حب الفتنة جماعها الذي عوجب به
من أئمة الرؤساء

ولم يبالى الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن الزبير
من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا
يستفرون على صبح . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت في موطن
مذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موسى هذا . قالت :
م تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأده .

وربما سابل الحصمان وجهاً لوجه فصارها على مسمع من
المسكرين تناصح الإخوان . ندى عيسى حصة الزبير يوماً : يا
زبير رج . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التفت حلقك
البطان^(١) ؟ وهذا والله العار . قال عيسى : يا زبير ! ارجع بالعار قبل
أن تجمع لعدو والدر فرجع . وأهاب به ابنه عبد الله يستثيره
أحسنت رأيت ابن أبي طالب ، وعلمت أنه يحملها فتيه نجاد ؟
قال : قد جئت ألا أقاتله قال : كفر عن يمينك وقسه .

ويسما هم في تقديم وأحير ومشاورة ومشورة قبل كعب بن سور
إلى عائشة فقالت لها : أحركي . فعد أبي الفير ، لا القتال نعل
الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الإدرع . وتعلت
الصحة من هـ وهماك . فسألت : ما هذا ؟ فإني . صجنة
العكسر . قالت : بحير أو بشر ؟ قالوا : بشر . إذ كان القتال قد
نشبت بين الفريقين من تصارع الموعاء وتنازع الغلابة وفلات
الأئمة من الرؤساء

(١) لبطان حرام لدية ، والتقاء الحنسين كناية عن التفت بركوب . مسير

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن ختمه الجمل كانت حملة اندفاع ، ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعايتها يملك رعاياها ويتوجه به إلى ضمير معروب .

والأفما يكون ذلك المصير ؟ إن أصحابها لم يريدوا بها أن يمسدوا الأمر على عليّ من شئ طالب للمصالحو للمعونة ، فلس منهم زعيم من حربه والتامليين بدولته .

ولم يتصرفوا على ولاية محمد بن عبد مريمه عسى أن تمت هذه الهزيمة وليست هي بالمركب بسول .

إنما هي حملة بهول إلى مقاسمة في أمر عليّ وحده من أوجه الشئ أشد ، إليها عيرت فتنهم الممثلة فينولي بعضهم عرق وبعضهم ليس . ونصح الأمر شركة أو « شوري » بينهم بين الحليفة ، على قريته سى عسرو به عن صلب الولاية في بعض الأحاديث بينهم رئيسه

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة في موقفها من القتال بين السياسة العامة على الإجماع

نعم ، إن فهم أساس الحملة هي وسيلتها إلى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصححها «مواردها ومبلغ الأحظار المطبورة من رايها عند الهجوم عليها » عرف الآية التي جنحت بالسيدة عائشة إلى الدخول فيها وهي كذا . حسب من تاريخ تلك الأساس في هذا الشأن .

والذي يبدو لنا من تلك الحوادث الشئ لحصاها حيث تقدم أن أساس الحملة به تكن عند السيدة عائشة ، لا دفعة من دفعات

الحملة لمى طبعت عليها ، قدحتها المفاجأة وأوقدتها كنزها العفريات بعدلوه على في بيته لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، وسهلت لها حوادث الماضي تمهيداً الذي رسم به الوجهه وانطلق به على هذه الخطة دون غيرها .

فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والبربر وعلياً لم يكبروا غيرة من السيدة عائشة . ولم تكن هي غريبة عنهم بمسيرها وسابق شعورها

طلحة من بنى عموميتها ومن بنى قيم قبيلتها وقيمة حليفة لأول الأول أسير . والبربر روح أختها أسماء ، وأبيه عبد الله بها الذي اختارته لكيسها في بعض الروايات ، فكنت بكسر من أحبه بأمر عبد الله .

وعلى أقرب الناس إلى بيتي النبي ، وروح ابنته ، وأبو حمزة ، وصاحب الرأي الذي لا ينسى في حديث الإفك ، وهو نصيحته لنفسه بصدقها

ومن الحق أن نقول إن الشعور الذي تكنه السيدة عائشة على من جرم هذه الصيحة شعور طبيعي لا عريفة فيه .

ولا ريب أن علياً وإبراهيم قد أحصاه التوفيق في تلك الصيحة باسم يكن من الإصاف أن تطلق عائشة لشبهه لعط بها المتبعون فضلاً عن الرقيب بين النبي وأصحابه ، ولئن يفهم الناس من تمهيد إلا أن السى قد أذابها وأنف من معاشرتها ، ولئن يصيبها شك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وألها وصمة لا تمحى في زمانها ولا بعدد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة وألها إلى الإسلام كله ، فيتحذ المارقون من صدق حديثهم الذي فكوا به قطعاً

في صدق الدين ونبيه ، وهكذا كنه إلى أن الإدانة بمنثل تلك الشبهة لا توافق التحرر الشديد الذي قصي به الدين في هذه القصص وجر مست من من دون عائشة في القلر والثقة . فما تحسبه علياً قدسها عن هذا كنه وهو ينصح إلى ليس بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تزويج مسمعة النسي وبسته ، واستكباره في هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم يكن ثم يهان علي ما قل .

وما من أحد يجهل الشعر الذي تقابل به النساء نصيحة كنك النصيحة . فاق ما يقال إنه شعور لا عراة فيه

ثم هاهنا في مسألة الخلاف والترشيح لها من بين عظماء الصحابة الذين يسمو على في الحجة بمرت أي بكر وعمر وعثمان . ومن هؤلاء صحابة عسى وصحة برسر كلهم قد تدبوا للاجتماع في بيت عائشة لاحتيا وجدهم للخلافة . وقال لهم عمر يومئذ : إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا لأمة إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، راس لا تخرب الناس عبيكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، ليختلف الناس « فنهضوا إلى حجر عائشة فتشاوروا وحتاروا رحلامكم » .

وكان حائراً أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير ، لأنهما ركيلا من وتلاء اشورى

ثم انقصت خلافة عثمان وتجددت المسألة مرة أخرى على النحو الذي شهدته عائشة قديماً في بينها فمع من يكون شعورها؟ إن طلحة والزبير مرشحين للخلافة منذ اثني عشرة سنة ، وقد نكروا اختيار الحقيقة من غير بني هاشم حتى أصبح في رأى

بعضهم كالعرف الذي يجري عليه التقليد . وليس على سند دمج من القرآن أو السنة يصل ذلك العرب ويسقط حجة طلحة والزبير . إذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير شعورها ومناقة رجائها فليس ذلك كما أسلمنا بغرب ولا مخالف المعهود في ضائع الناس

عسى ألا لا يريد بما تقدم أن يسوع موقف السيدة عائشة من رفعة الجبل وخصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها عسى له حة التي لا غرابة فيه ، ولم ترد نسوبه في نظر العقل ولا في

الناج

عسى وأحطاه الدقيق في نصيحته .

وعائشة قد أحطها الموقن في مكافحته من أجل هذه نصيحته ، وإن كانت لا تلام علي أنها كانت تتمنى الخلافة

سواء

بكتنا به ذكرنا هذا كان حبيب أن نذكر معه أن السيدة عائشة سمت على موقعها من يوم الحمل أشد ندامة ، فكانت تقول ثمة حينئذ : ليسى من قبل يوم الحمل ، وقالت مرة . ليت كان على من رسول الله ﷺ بنون عشرة وشكلهم وسم يكن يوم الجسد . كنت كما حرص الناس في حديث ذلك اليوم بكى حتى نل حمارها .

عليان يذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة ثانية عى حق على رضى الله عنه ، فلم تنهه بدم عثمان ولم تحاور بأسه من بديعه ، وقالت عنه غير مرة إنه الصوام العرم ، « أحب الناس إلى رسول الله

وعلمنا أن تذكر أن المفريات بالاندفاع في هذه الناشئة كثيرة :
 حسد في الطمع ، ومفاجأة تمتدو الحدة ، وبسطة مطبقة بالعداء
 لعلى ، وسعى حثيث من تقرب الناس إليها وأقربهم إلى إغنائها
 زلهم مع هذا أهدمت على مورد سبهم لا يصح الشرفه ،
 ورددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفصى
 إلى نتائج . وأصغبت إلى نغوه الإصلاح ودعت إليه . وهو حادث
 لا بد منه من عبدة .

وإن عبرته لأحق عصر التابيح الإسلامى بالسجيل .

حقوق المرأة

في حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة في عصرها .
 قد يناس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة في جميع العصور .
 بالحجة البيئية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم وسعادة
 لرجل في واجباته العامة هي خير ما تتولاه المرأة من لأعصاب .
 والسياسة - ولا سيما السياسة في عصر الاضطراب - هي
 مجل الذي يحسن به جتنانه ولا يرخى بها انشغافه . وقد
 تاذى فيه هنالك الخيرادا الترمت منه جانب المسالمة وكذب لها
 وميلنا إليها . أم جانب الرئاسة والإشراف فلا طاقة لها به ، ولا
 يتأتى لها أن تتولاه إلا إذا نقلت إليه شؤون البيت ومزحته بما
 يهينها من أراض القردة والمعيشة الزوجية .

بالسياسة عائشة كانت ربه بينها وشركة زوجها ، وكذبها
 بعظيم يعينها في شئونه ويكون في مهمة البيت ما دم فيه
 ركبت هي تعبها على شؤون الهدية والإصلاح كلما وسعها
 لمعونة بيها ، وقد لقت الناس ما لقت منه فأحسن التفرق
 وهذا في جدته هو هام أحذرقه من الج .

ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها في بيت الرئاسة
 نشأت ، وهي بيت الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤمها

هذه هي الحقيقة المائلة بين أعياننا ، وعلى أساسها ينبغي أن
تبنى المذاهب والآراء

أما الذين يضعون المذاهب والآراء ثم يفسرون الحقيقة علم
مواقفها فأولئك على اطل ، ولن تقوم للأطل قائمة في عالم
الطبيعة

ومن أمثلة المذاهب التي تفسر الحقيقة على مواقفها مذهب
الشموع في التسوية لكاملة بين الرجل والمرأة فهم يريدون
أن يسموا النساء ، لأن الأسرة هي زعمهم أصل الاستقلال ، وأن
الاستقلال قائم على اختلاف بين حقوق الرجل وحقوق المرأة
، ولهم حجة أن مصل هذا الاختلاف وأن تقرر المساواة بين
الرجاء والنساء في جميع الأحوال وجميع الأعمال

وهذا تحجير للحقيقة في مسلسل الزنى ، وهو وحده كغير
انقصاء على مذهب الشيوعي ونفسه عاجلا أو آجلا على
مواقفه الحقيقة التي يردّها هو أن يعثرها على هواه

فليس لإنصاف إذن أن تتساوى الرجل والمرأة في جميع
الحقوق والواجبات وهما محضتان هذا الاختلاف الظاهر للعيان
لمثل تعلم والنحو منذ كان للإنسان ، من قبل أن يكون الإنسان
حيث يختلف الذكر والأشئ في عالم الحيوان .

ولكن الإنصاف الذي يحتتمع فيه حكم العظرة وحكم الآداب
الإسانية هو أن تأخذ من الحقوق كفاء ما عليها من الواجبات
وأن تعنى حقيقتها وتساو عن واجباتها بالمعروف * * * ومنه

الذي عليهم بالمعروف * لا ما يرهق والإذلال فهناك تهذيب الإنسان
إلى جانب حكم العظرة وهما خير من الإنصاف الشرائع والآداب

وليس من الوحيد عن سواء التفكير أن يستطرد الفكر هنا إلى
سؤال لا بد أن يحطر على البطل ، وهو تسؤال عن تعدد الزوجات
أهو من الإنصاف ؟ أهو من الكرامة والمصروف ؟ أهو من سنة
العظرة وتهذيب الإنسان ؟

واعترفنا نحن أن المثل الأعلى للرواح هو الرواح بين رجل
وامرأة يتحانان ويمتدحان بالحسم والروح ولا يتفرقان مدى الحياة
وكما يعتمد من هذا الاعتقاد مثل الأعلى ثم يحس فقط
لترصه القوانين على جميع الناس

إما مثل الأعلى هو الحياة ، التي تبصر كلما تبصر
الكمال وتبصر مقارنة الكمال

وليس هذا بالحالة التي تفرصه لقوانين على كل رجل وكل
مرأة من جميع مراتب التفكير والتهذيب

فإن تفرص القوانين ما يستطاع بين عامة الرجال وعامة
النساء ، وما تسمح به أخلاق الزوجين وضرورات المعيشة التي
لها عليهما سلطان مسموع كسلطان الأخلاق

ولا حاجة إلى فرضها على الأمة الماهرة بين صفوف الرجال
وصفوه لساء ، لأن هذه الأمثلة هي عني عن تعلم القوانين
والإسلام لم يقل إن تعدد الزوجات هو المثل الأعلى .

ولم يفرصه على كل مسلم ، ولم يحمله من كل مسلم ولم
يخه من شرط عسير هو العدل في المعاملة وإن تعذر العدل في

المحبة ، ولم يفعل إلا أنه وضع التشريع في موضعه الذي يحسب فيه حساب المثل النادر والمثل الشائع ، ولم تأت بعده شريعة حلت هذه المشكلة بغير الهرب منها أو المغالطة فيها . كما هو الواقع الملموس في الأمم التي تحظر تعدد الزوجات ولا تحظر المعيشة مع العليات ، أو معاملة النساء كمعاملة العجذوات .

وفي مجتمع الإنساي حالة يكثر فيها عدد النساء ويقل عدد الرجال ، ولم تستطع الحضارة التي يتعول باسمها تعدد الزوجات أن تمنع تلك الحالة أو تبطل عواقبها . فلا تزال في كل جيل نشهد حروباً من الحروب العالمية التي تنجلي عن ثلاثين أو أربعين مليوناً من القتليات أو الأرمال بغير قرناء .

وقد عاشت في تعدد الزوجات فهو خير من التبذل الويل . من إساءة المرأة محللاً في المصنع بدلاً من محلها في البيت والأسرة .

وقد بتطلق الهوس بالمساواة إلى أبعد من هذا المدى فيسأل مسائل : وهل يجوز للمرأة تعدد الأزواج كما يجوز للرجل تعدد الزوجات ؟

جواب ذلك أنه بمحكم الفطرة لا يجوز .

لأن الرجل يستطيع أن يؤدي واجب الأبوة مع تعدد زوجاته ، ولا تستطيع المرأة أن تؤدي واجب الأمومة لأربعة أزواج أو لزوجين اثنين . كذلك له من حق مراقبتها والسهر عليها أكثر من حقها في مراقبته والسهر عليه .

لأنها تستطيع أن تخدمه بولد ليس من لحمه ودمه ، أو تخدمه في أمس شعوره به بعد شعوره بكيانه .

ولكن من لا يستطيع أن يخدمها بولد ليس من لحمه ودمه ، وأن يصيبها بمثل هذا المصائب الأليم الذي ليس ألم منه ولا أفجع في نكبات النفوس .

وهنا محل عادل للدرجة التي للرجال على النساء ، كالعادل في محل تلك الدرجة عند التفرد بحق تعدد الزوجات وعند التفرد بمحقوق تحالف حقوق النساء ، تبعاً للخلاف في التركيب والتكوين .

على أن البحث في حرية الزوجة والبحث في حرية المرأة سألنا اثنتان لا مسألة واحدة :

لأن لأراء على تناقضها تلتقي في مسألة حرية الزوجة عند ملتقى واحد وهو تقييدها بحقوق الزوج كائناً ما كان الرأي في قداسة لزواج . فالذي لا ينكر الخيانة ينكر السرقة والاغتصاب ، والذي لا يؤمن بالمعاطفة الخالصة يؤمن بشروط القسمة بين الشريكين . ومما لا جدال فيه أن الزوج شركة لها شروطها ، وأهون ما يقال في تلك الشروط أنها كشروط الشركة في المال ، فلا يجوز للزوجة أن تختلس من حقوق شريكها ولا أن تسرق نصيبه المقسوم بينهما على السواء ، وهما الملتقى بين القائلين بالوفاء بالقائلين بالمحافظة على حصة الشريك .

ولكن المسألة التي ينطلق فيها العلو إلى غاية مداه هي مسألة البحث في حرية المرأة على التعميم بمعزل عن علاقة البيت وعلاقة الزواج .

فمن أدعاء الحرية في عصرنا هذا من يرى أن حرية المرأة التي لا زوج لها هي راحة مطلقة لا يقيدتها واجب من الواجبات ، وإن القيود الجنسية التي اصططلحت عليها الأمم منذ القدم إن هي إلا اعتساف من الأديان أو من الكهانات « الطوطمية » قبل الأديان ، ويعنون بالطوطمية تقدس بعض الأحياء واعتبارها سلفاً للفيلة يضمها في نسب واحد ويحرم على أتباعه المزاوجة كما تحرم الآن بين الإخوة والمحامرم .

وتمادى بعض هؤلاء ، فاستكثروا القيود الجنسية على الحيوانات الدنيا ، وزعموا أنها لا تتقيد بموسم للمزاوجة إلا لوفرة الثمرات في ذلك الموسم وامتناء الجسم فيه يقبض من الحيوية يدفعه إلى طلب الذرية ، قالوا : « إذا توافر الطعام على طول العام للدواجن من الحيوانات نسي قيود الموسم وطلبت المزاوجة أتى ثيسرت لها من أيام العام .

وهذا كلام لا يعنينا أو نخوض في تفاصيله وأن نتوسع في تفنيده ، ولكننا نلاحظ عليه عرطاً أن السر في موسم المزاوجة أعمق جداً من الطعام وأخرج إلى القهيم جداً من هذا النظر القصير .

والأفلمماذا تتوافر الثمرات في ذلك الموسم ؟ ولماذا يكون خصائص ذلك الموسم أن يزيد قوة التوالد في النبات ولا يكون من خصائصه أن يزيد قوة التوالد من باب أولى في عالم الحيوان ؟

وما بال الحيوانات التي تأكل الأحياء وتجدها طول السنة تجري في موسم للمزاوجة على سنة الحيوانات التي تأكل النبات ؟ وما بال الأسماك في البحار تتمدد إلى الأنتهار القمعية للمزاوجة خلال فترة واحدة وهي في موسم متشابه من الأطعمة طوال العام ؟

إن سر التوالد بعد جداً من أن يحله ذلك النظر القصير ، لأنه هو بعينه سر الحياة .

وأيّاً كان القول في الاختلاف بين الدواجن والأربد في موسم المزاوجة فالامر الذي يتفقان فيه أن الحيوان لا يقارب الأنثى وهي حامل ولا يطلب المزاوجة للمبث والمجون .

فالحيوان نفسه لا ينطلق من جميع القيود في علاقاته الجنسية .

ومن المصنف أن نرد قيود الأخلاق الجنسية في الإنسان إلى اعتساف الطوطمية والكهانة .

لأن الأخلاق كلها - جنسية أو غير جنسية - قائمة على ضبط النفس أو على وجود لضوابط الأدبية في بنية الإنسان .

والطعام - مثلاً - مباح لا يتعلق به عرض ولا شرف ولا تزييف نسب ولا اختلاس ذرية ، ولكن الإنسان الذي لا يضبط شهوته أمة إغراء الطعام حينما أصابه ، إنسان مهين ولو كان طعامه من كسب يديه .

ولما كان ضبط النفس لازماً في الشئون الجنسية - لزومه في كل شهوة من الشهوات - لانه قيمة أخلاقية يطلبها الرجل في

المرأة وتطلبها المرأة في الرجل ، ويطلبانها معاً في الذرية التي
ترث منهما هذه الفضيلة .

وإذا نفر الرجل من المرأة التي تنطلق مع أهوائها وتتهافت على
شهواتها فهو لا ينفر منها لأنها خالفت الدين أو خالقت الطوطمية
كما يرعمون ، ولكنه ينفر منها فطرة لأنها مخلوق معيب في
تكوينه سلب من الضوابط السليمة التي تناط بها جميع
الأخلاق .

فالدِّين لم يعتسف هذه الضوابط اعتسافاً لغير علة ولغير مزية ،
ولكنه شرعها وهي في أصول الفطرة الفويمة ، لأنها مزية في
أخلاق الفرد ومزية في أخلاق النوع ، وما كرامة نوع يعرف الإباحة
ولا يعرف ضوابط الشهوات !

ترجع قيود الجنس إلى أصول الحياة ، ولا ترجع إلى اعتساف
من دين أو شريعة .

ولو لم تكن تلك القيود مصلحة للفرد ولا للنوع كله لكانت فيها
دلالة على قدرة ضابطة في النفس هي قوام كل طبيعة مهيأة
للغلب في ميدان الحياة .

وترجع قيود الجنس إلى مرجع آخر قريب من هذا المرجع في
نسوعه الأصل ، وهو أن العلاقة بين الذكر والأنثى هي علاقة
بين شخصية وشخصية ، وليست علاقة بين جسدين أو
عضوين . وأية تلك هذا السباق الخالد الذي تترقى به الأحياء ،
جميعاً ، لأنه يوكل الانتخاب الجنسي بأكمل المحاسن وأندر
الصفات ، ويجعل « الشخصية المتكاملة » هي الهدف الذي

يتجه إليه ذلك السباق ، وأصدق من أدعياء الحرية هؤلاء طبيعة
المرأة التي لا تتدعها ، فإنها لتعلم من قرارة وجدانها أن طلاقها
بخص لقبمتها ، إذا كان معنى الطلاق أن تسعى هي إلى الرجل
ولا تتركه يسعى إليها ، ومن قبل المرأة في علم الإنسان كانت
الأنثى في عالم لحيوان جائزة للمنافسة والسباق ، ولم تخلق لها
وسيلة واحدة من وسائل الافتحام التي ميز بها الذكور .

وخلاصة ذلك كله أن حقوق المرأة لم تكن قط مسألة فرد ولا
مسألة أمة أو مجتمع مرفوت ، ولكنها كانت ولن تزال مسألة لنوع
الإنساني بأسره ، فلا مناص فيها من الضوابط التي تعبر عن
مصلحة النوع وتجاوز المصلحة العاجلة والغرض القريب .

ولهذا تصدق الأديان لأنها تنطق بلسان الفطرة السليمة ،
وتكذب المذاهب التي تحسب أن ضوابط الجنس في المرأة
والرجل من اعتساف الأديان ، لأن الإباحة التي تنادي بها هذه
المذاهب تدل على جهل بالفطرة ، وهي تنادي نداءها باسم العلم
والمعرفة الحديثة ، وهنا فلنحسب للقدم مزيتها الأولى إذ هو قدم
الفطرة الباقية ، وهي أسبق إلى المعرفة الصادقة من كل حديث .

فهرس

٣	المرأة العربية
١٤	المرأة المسلمة
٢٠	المرأة الخالصة
٣١	عائشة
٤٤	زوج النبي
٦٧	حديث المؤقت
٨٢	بعد لنبي
٨٧	في السياسة العامة
١٠٧	حقوق المرأة